

تفريغ شرح ثلاثة الأصول وأدلتها

من الدرس (١٠) إلى (١٧)

للشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر
حفظه اللّه

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس العاشر

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن مُحَّداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد :

قال شيخ الإسلام مُحَّد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

الأصلُ الثَّاني: معرفةُ دين الإسلامِ بالأدلةِ؛ وهو الاستسلامُ للهِ بالتوحيدِ، والانقيادِ له بالطاعةِ، والبراءة مِنَ الشِّركِ وأهلِهِ. وهو ثلاثُ مراتبَ: الإسلامُ، والإيمانُ، والإحسانُ؛ وكلُّ مرتبةٍ لها أركانٌ. فأركانُ الإسلامِ خمسةٌ: شهادةُ أنْ لا إله إلاّ اللهُ وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وإقامُ الصلاةِ، وإيتاءُ الزكاةِ، وصومُ رمضانَ، وحجُّ بيتِ اللهِ الحرامِ.

****

لما أنهى المصنف رحمه الله تعالى الكلام على الأصل الأول؛ وهو معرفة العبد ربه بأنه جل وعلا الخالق وحده لا شريك له ، المتفرد بالخلق والرزق والمن والعطاء ، وأن مَن هذا شأنه يجب أن يُفرد وحده بأنواع العبادة فلا يُجعل معه شريك في شيء منها . ثم ذكر رحمه الله تعالى أنواعاً من العبادات المقربات إلى الله جل وعلا ، مبيناً أن تلك العبادات ونظائرها وأمثالها حق لله يجب أن يُفرد بها وحده جل وعلا ، وأن صرف شيء منها لغيره يعدُّ شركاً بالله جل وعلا واتخاذاً للأنداد .

لما أنهى رحمه الله الأصل الأول شرع في بيان الأصل الثاني وهو : ((**معرفةُ دين الإسلامِ بالأدلةِ**)) ؛ ودين الإسلام هو الدين الذي رضيه الله جل وعلا لعباده، قال : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] ، وهو الدين الذي لا يقبل الله ديناً سواه؛ قال الله تعالى :﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥] ، وهو دين الله جل وعلا، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران:١٩] ، وقد أمر الله جل وعلا الدخول فيه كافةً ، لا أن يكون دخول المرء في أمور الإسلام مبنياً على الاختيار؛ يأخذ من أمور الإسلام ما أحب ويدع ما لا تهوى نفسه! ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ [البقرة:٢٠٨] ؛ وهذا يتطلب من العبد معرفة الإسلام وشرائعه ومبانيه وما يتعلق به من أحكام، ليجاهد نفسه في هذه الحياة ليكون من أهل الإسلام حقاً وصدقاً

وهذا الأصل أراد أن يبين فيه رحمه الله تعالى الإسلام الذي هو دين الله ، الدين الذي رضيه جل وعلا لعباده ؛ قال : ((**معرفةُ دين الإسلامِ بالأدلةِ**)) ؛ أشير هنا إلى ما سبق التنبيه عليه: وهو أن أمور الدين عموماً من عقائد وعبادات هي عبارة عن مسائل ودلائل ؛ فالإسلام هو مسائل عديدة وشرائع متنوعة مبنية على الدليل ، والدليل: «قال الله تعالى، قال رسوله ﷺ» ؛ هذا هو الإسلام ، الإسلام مسائل وشرائع وأعمال وتكاليف مبنية على الدليل ، والدليل هو: قال الله تعالى، قال رسوله ﷺ . والعبد مطلوبٌ منه أن يعرف الدين بالدليل ، لا أن تكون معرفته بالدين مبنية على الهوى ، أو مبنية على الآراء ، أو مبنية على التجارب ، أو مبنية على المنامات أو الحكايات أو غير ذلك . من الأمور المؤسفة أن ترى في الناس من يتدين ويتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بزعمه بأعمالٍ ليست في القرآن ولا في السنة ولكنها مبنية على منام رآه ، أو تجربة فعلها ، أو حكاية سمعها ، أو رأيٍ أعجب به ، أو قصةٍ ذُكرت له ، أو نحو ذلك من الأمور التي جُعلت لدى فئات من الناس مصادر للاستدلال في أمور الدين ؛ وهذا من الغلط بمكان ، دين الله جل وعلا الإسلام منبعه ومصدره الدليل ، والدليل هو «قال الله، قال رسوله عليه الصلاة والسلام» ، ولهذا كان ابن تيمية الإمام الجليل رحمه الله تعالى —كثيراً ما يقول : «من فارق الدليل ضل السبيل ، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول ﷺ » كلمة عظيمة . ويقول الإمام ابن أبي العز الحنفي رحمه الله يقول : «كيف يرام الوصول إلى علم الأصول بغير ما جاء به الرسول ﷺ ؟!» أي أن هذا غير متأتي ولا ممكن .

فدين الله وشرعه هو مسائل مبنية على دلائل ، والدلائل هي قال الله قال رسوله ﷺ . هذا أصل لابد أن ينتبه له المسلم ، فإذا جاءك شخص وقال لك : هذا الذكر جميل وهذا الدعاء حسن وهذه العبادة طيبة وقلت له : ما الدليل ؟ قال : الدليل أنني البارحة نمت ورأيت في المنام كذا وكذا ، قل له : دعني ومنامك ، إذا عندك آية من القرآن أو حديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام فأهلاً وسهلاً ، حي علا . أما منام أو حكاية أو يقول : "جربت وجرب فلان وهذا بنيناه على تجارب نحن وأشياخنا أو نحن وإخواننا" ؛ كل هذا لا يُبنى عليه دين ، الدين يُبنى على الدليل، والدليل قال الله قال رسوله ﷺ ، يُبنى على الأدلة .

ولهذا بدأ رحمه الله بتقرير هذا الأصل الذي لابد أن يُقرر ، لأن هذا الأصل إن لم يُقرر ويثبت زاغ الإنسان وراغ عن الصراط المستقيم وأُخذ هنا وهناك من سبل الانحراف الكثيرة ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ [الأنعام:١٥٣] الذي لا يعتصم بالدليل -كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام- لابد أن يفارق السبيل شاء أم أبى ، لأن العصمة والأمَنة والسلامة والسداد مع الدليل كلام الله ورسوله صلوات الله وسلامه عليه .

والمصنف رحمه الله مثلما رأينا في هذا الكتاب وفي كتبه الأخرى ماضي على جادة واحدة مضى عليها أهل السنة قاطبة في قديم الزمان وحديثه وهي: ذكر المسألة مضموماً معها دليلها ؛ يقول لك : يجوز كذا قال الله تعالى كذا ، لا يجوز كذا لقوله ﷺ كذا ، يحرم كذا لأنه ثبت في الحديث كذا وكذا .. ماضين على هذه الطريقة؛ يذكرون المسألة أو الحكم مضموماً إليه دليله . هذا الكتاب الذي بين أيدينا كتاب صغير الحجم، ومع صغر حجمه فيه من الأدلة ما يبلغ ستين دليلاً من القرآن والسنة ، كلما يذكر شيئاً يقول :قال الله تعالى أو يقول: قال ﷺ ، يبني كل كلمة يوردها كل حكم يسوقه كل تقرير يورده على الدليل .

وهنا تعرف الفرق بين دعاة الحق و دعاة الضلال ، والفرق بين كتب أهل السنة و كتب أهل البدع ؛ ترى في كتب أهل البدع استدلال بغير القرآن والسنة ، إما يستدل بالعقل المجرد ، أو يستدل بالتجربة، أو يستدل بالمنامات ، أو يستدل بالحكايات ، إلى غير ذلك من مصادر الاستدلال الكثيرة التي أخذت الناس إلى سبل الانحراف عن صراط الله تبارك وتعالى المستقيم . ولهذا قرر هذا الأصل من البداية ؛ قال : ((**معرفةُ دين الإسلامِ بالأدلةِ**)) ، والأدلة عنده وعند غيره من أئمة الدين وعلماء السنة هي الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ؛ هذه هي الأدلة ، ولهذا الكتاب كله ماضي على هذه الطريقة: إما يستدل بآية أو يستدل بحديث عن الرسول صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

قال : ((**وهو الاستسلامُ للهِ بالتوحيدِ، والانقيادِ له بالطاعةِ، والبراءة مِنَ الشِّركِ وأهلِهِ**)) ؛ هذا الإسلام.

وهذا التعريف — أقول أيها الأخوة — ينبغي أن نحفظه ، تعريف عظيم جداً وجامع ، وهو من أحسن التعاريف التي بُيّن بها الإسلام . الإسلام –قال– : ((هو الاستسلامُ للهِ بالتوحيدِ، والانقيادِ له بالطاعةِ، والبراءة مِنَ الشّركِ)) ؛ تأمل التعريف ترى فيه فائدة عظيمة في بيان حقيقة الإسلام .

والإسلام كما قال أهل العلم هذه اللفظة تتضمن أمرين في أصل دلالتها ؛ألا وهما : الاستسلام والسلامة ؛ وكل من الأمرين قد رُوعي في هذا التعريف الذي ساقه الإمام رحمه الله .

أما السلامة ففي قوله : ((وهو الاستسلامُ للهِ بالتوحيدِ)) ؛ بمعنى أن يكون دينك وعباداتك وقرباتك سالمة من الشرك ، وخالصة وصافية ونقية لا يُراد بها إلا الله جل وعلا ، سالمة من مبطلات العمل ومفسداته تكون صفتها النقاء والصفاء والخلوص ، لا يُراد بها إلا الله جل وعلا ؛ فتكون مستسلماً لله ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾[الزمر:٥٤] أي لربكم . فالاستسلام لله: أي خالصاً ، لا يُجعل مع الله تبارك وتعالى شريك فيه . ومعنى ذلك: لو أن أحداً جاء بشرائع الإسلام مثل الصلاة أو الصيام أو الصدقة أو الدعاء أو الذبح وفعَلها ولكنه في نيته في الداخل قصد بها غير الله؛ أصبح إسلامه واستسلامه لغير الله ، جعل مع الله

شريكاً فخرج من السلامة ، لأن الإسلام مبني على السلامة من الشرك ، من مبطلات الأعمال ، من نواقض الدين يكون سالماً من ذلك ، ولا يكون سالماً من ذلك إلا بصفاء العمل ونقائه وخلوصه بحيث يكون لله تبارك وتعالى وحده ، لا يُجعل مع الله فيه شريك . ولهذا بدأ رحمه الله أول ما بدأ في تعريف الإسلام قال : ((الإسلام هو الاستسلامُ لله)) أي وحده ((بالتوحيد)) معنى الاستسلام لله بالتوحيد: أي أن تخلص دينك كله لله ، لا تجعل مع الله شريكاً في شيء من الدين لا قليل ولا كثير ، لأن الدين كلّه لله سبحانه وتعالى ، فتستسلم لله لا لغيره ، يكون دينك كله لله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[البينة:٥] ، ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[الزمر:٣] ، فإذا لم يكن الدين بهذه الصفة؛ خالصاً لله صافياً نقياً لم يُرد به إلا وجه الله ، إن لم يكن كذلك لا يقبله الله ، لأنه سبحانه وتعالى لا يقبل من العمل إلا الخالص كما في الحديث القدسي : ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه)) أي ردَّ عليه عمله .

فإذًا حقيقة الإسلام أن تستسلم لله وحده بالتوحيد ؛ أي تكون في أعمالك موحداً لا مشركاً ، مخلصاً لا منددًا ، لا تريد بأعمالك إلا وجه الله سبحانه وتعالى؛ هذا الإسلام ؛ الاستسلام لله بالتوحيد .

((**والانقيادِ له بالطاعةِ**)) كما أن الإسلام إخلاص وتوحيد فالإسلام أيضاً انقياد لله وطواعية وامتثال لأمر الله سبحانه وتعالى وأمر رسوله ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[النساء:٨٠] ؛ فهذا جانب آخر من معنى الإسلام وهو أن تستسلم لله بمعنى تذعن وتنقاد لأمره سبحانه وتعالى ولا تعصيه جل وعلا ، يكون شأنك كما نعت الله سبحانه وتعالى أهل الإيمان في خواتيم سورة البقرة ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[البقرة:٢٨٥] هذا هو المسلم يسمع ويطيع ، ينقاد يمتثل لأمر الله تبارك وتعالى ، يخضع له .

قال : الإسلام ((**هو الاستسلامُ للهِ بالتوحيدِ، والانقيادِ له بالطاعةِ**)) ؛ أي أن تكون عبداً منقاداً مطيعاً ممتثلاً لأوامر ربك جل وعلا .

قال : ((**والبراءة مِنَ الشِّركِ وأهلِهِ**)) لا يكون مسلماً إلا من برأ من الشرك ومن أهل الشرك ، وإلا لا يكون من أهل السلامة ، إذا لم يبرأ من الشرك وأهله لا يكون من أهل السلامة الذين هم أهل الإسلام ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[الممتحنة:٤]

هذا إعلان براءة من شيئين : من الشرك ومن أهل الشرك ؛ يبرأ المسلم من الشرك ، ويبرأ المسلم من أهل الشرك متخذين الأنداد والشركاء مع الله سبحانه وتعالى . وبهذا يُعلم أن من لم يبرأ من الشرك وأهله لا يكون

من أهل الإسلام ، لأن من الإسلام أن تبرأ من الشرك، ((من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله دخل الجنة)) ؛ اشترط الكفر بما يعبد من دون الله . فإذاً البراءة من الشرك والبراءة من أهل الشرك هذه من الإسلام ومن حقيقة الإسلام .

هذا تعريف الإسلام ، وهو تعريفٌ جامع مانع عظيم ينبغي على كل مسلم أن يحفظه وأن يحافظ عليه وأن يطبقه .

قال : ((**الإسلام: الاستسلامُ للهِ بالتوحيدِ، والانقيادِ له بالطاعةِ، والبراءة مِنَ الشّرْكِ وأهلِهِ**)) ؛ والتعريف يتكون من جملٍ ثلاث ، وكل جملة من هذه الجمل أشرتُ إلى شيء من أدلتها في كلام الله تبارك وتعالى .

قال: ((**وهو ثلاثُ مراتبَ**)) والمراتب: هي المنازل والدرجات، قال الله تعالى : ﴿**وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا**﴾ [الأحقاف:١٩]

قال : ((**وهو ثلاثُ مراتبَ**)) ؛ أي الإسلام الذي هو دين الله تبارك وتعالى ليس هو مرتبة واحدة بل هو مراتب، وعدد هذه المراتب تحديداً ثلاث، الإسلام ثلاث مراتب وهي : مرتبة الإسلام ، ومرتبة الإيمان ، ومرتبة الإحسان ؛ هذه مراتب الدين . وأعلى مراتب الدين: مرتبة الإحسان ، ثم يلي هذه المرتبة مرتبة الإيمان، ثم يلي هذه المرتبة مرتبة الإسلام ، وليس بعد الإسلام إلا الكفر ؛ فهذه مراتب الدين . ومن المفيد جداً للمسلم أن يعرف مراتب الدين وأن يعرف حقيقة كل مرتبة ليبدأ مع نفسه في مجاهدة وطلب عون من الله ومد بأن يبلغه جل وعلا الرتب العالية والمنازل الرفيعة ، «وأن تجعل الحياة زيادة لي في كل خير» ، فيبدأ مع نفسه في مجاهدة .

فإذاً دين الإسلام مراتبه ثلاثة وهي: الإسلام والإيمان والإحسان ، وإذا أردت أن تعرف حقيقة كل مرتبة والفرق بينها وبين الأخرى فاقرأ حديث جبريل المشهور الذي يرويه الصحابي الجليل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه قال : «بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد؛ حتى إذا جلس إلى النبي صلي الله عليه وسلم أسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا مُحَمَّد أخبرني عن الإسلام؟ قال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت الحرام إن استطعت إليه سبيلاً. قال : صدقت ، قال : فعجبنا له ، يسأله ويصدِّقه ! ثم قال : يا مُحَمَّد أخبرني عن الإيمان؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت، قال : أخبرني عن الإحسان؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : صدقت، قال : فأخبرني عن الساعة؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، قال : أخبرني عن أماراتها؟

قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ، ثم انطلق ، فلبث ملياً ثم قال : يا عمر أتدري من السائل؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : هذا جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم» ؛ جاء عليه السلام معلماً بصيغة السائل يعلِّم الناس دينهم .

انتبه جيداً لما خُتم به الحديث وهو قول النبي عليه الصلاة والسلام : «يعلمكم دينكم» لتستفيد من ذلك فائدة عظمى وهي موضوعنا ألا وهي: أن ديننا ثلاث مراتب بُينت في الحديث ؛ وهي الإسلام ، وشرحه النبي عليه الصلاة والسلام وبيَّن معناه ، والإيمان وشرحه النبي عليه الصلاة والسلام وبيَّن معناه ، والإحسان وشرحه النبي عليه الصلاة والسلام وبيَّن معناه؛، فإذاً ديننا بُيّن في هذا الحديث . ولهذا يُعد هذا الحديث أجمع حديث في بيان الدين ، حتى إن بعض العلماء كان يسمي هذا الحديث «أم السنة» ، مثل ما أن الفاتحة تسمى «أم القرآن» ، وأنتم تعلمون أن الفاتحة سميت «أم القرآن» لأنها جمعت علوم القرآن ؛ بمعنى أن ما بُيّن في القرآن كله تفصيلاً قد بُيّن في الفاتحة إجمالاً ، بمعنى أن سورة الفاتحة أجملت كل تفاصيل القرآن ولذا صارت أمًا للقرآن ، وحديث جبريل المشهور جمع تفاصيل السنة وشرائع الإسلام ورتب الدين جمعها في هذا الحديث العظيم ؛ ولهذا أطلق عليه بعض العلماء «أم السنة» . وكثير من أهل العلم ينصح بحفظ هذا الحديث حتى العوام ، والذي لا يستطيع أن يحفظ يكرر الحديث عشرين ثلاثين أربعين مرة حتى يكون محفوظاً له .

بعض العوام لم يجد من يوجِّهه ، أذكر مرة كنا في مكان فيه بعض البوادي فقلت لأحدهم أقرأ سورة الإخلاص {قل هو الله أحد} لم يحسن قراءتها ، قال لي : أنا عندي قصيدة ، قلت : هات القصيدة ، ويعطينا قصيدة قرابة ستين بيت ، عنده قدرة يحفظ لكن ما وجد من يوجهه ليحفظ مثل هذه الأمور!! ، لهذا عندنا هنا أحاديث وأمور جامعة ينبغي للعامي أن يجاهد نفسه على حفظها ولا يغالط نفسه يقول أنا ما أستطيع أن أحفظ ، يتفقد نفسه سيجد أنه يحفظ أشياء أعجبته وحفظها ويرددها بين وقت وآخر حتى لا تضيع منه ، هذا أولى ؛ حديث جبريل وفاتحة الكتاب وسورة الإخلاص وسورة المعوذتين هذه أولى ، هذه تجمع لك مقاصد الدين ، تجمع لك أساس السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة ؛ فيجاهد نفسه على حفظ مثل هذه الأحاديث .

الشاهد أن حديث جبريل حديث ينصح العلماء بأن يُحفظ ، ولعل في هذه المناسبة يكون تعاون يبدأ بيننا وهو موجود لكن نزيد منه؛ نحفظ الأربعين للنووي ، وأنا أنصح الحجاج والزوار أن يشتروا هدايا كتاب الأربعين للنووي، وكتاب الأصول الثلاثة ، ويبدأ في البلد يشجع العوام والصغار والنساء والأولاد يحفظون ، أليس هناك من يشغلهم في البلاد بحفظ القصائد وبحفظ التوافه وبحفظ الأمور التي لا قيمة لها ولا فائدة ؟ إذاً نحن أيضاً لابد أن نعمل مع أولادنا ، أهلينا ، جيراننا ، نبدأ نفعِّل انتشار الخير ونشجع عليه ونحفز حتى

ينتشر الخير ، لاسيما أننا في هذا الزمان ابتليت عقول كثير من الناس من خلال القنوات ومن خلال المجلات ومن خلال وسائل كثيرة التي انفتحت على الناس شُغلت العقول ، تجد كثير من الناس يعرف أشياء كثيرة إلا دينه الذي خُلق لأجله لا يعرفه ؛ أساسيات في الدين أصول قواعد مهمة في الدين لا يعرفها ، وإذا سألته عن توافه من أمور الدنيا أو توافه من المحرمات والخسائس يعرفها بالتفصيل!! شُغلت العقول . والجميع متحمل أمانة أن ينشر هذا الدين ، وأن يكون من المتعاونين على البر والتقوى وإيصال الخير للناس، ولا تُترك الساحة لدعاة الضلال وأئمة الباطل وأرباب الشهوات يصلون إلى العقول وإلى القلوب وإلى النفوس ويضيّعون الناس .

حديث جبريل حديث عظيم جداً وفيه بيّن النبي ﷺ مراتب الدين الإسلامي على الترتيب ؛ الإسلام ، ثم أعلى منه الإيمان ثم أعلى منه الإحسان ؛ بمَ عرَّف النبي عليه الصلاة والسلام الإسلام ؟ لاحظ الآن ملاحظة قبل قليل نبهنا عليها وهو أن الإسلام ينتظم أمرين: سلامة واستسلام ، وأنظرهما في بيان النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت الحرام إن استطعت إليه سبيلاً**)) ؛ فعرَّف الإسلام بذكر الأصل الذي يبنى عليه وهو التوحيد ؛ شهادة أن لا إله إلا الله وبها بدأ ، ثم ثنى بالشهادة للرسول عليه الصلاة والسلام بالرسالة وهذا معناه الطاعة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ [النساء:٦٤] ، ثم ذكر أعظم شرائع الإسلام وهي الصلاة والزكاة والصيام والحج .

فإذاً الإسلام هو استسلام لله بالتوحيد «أشهد أن لا إله إلا الله» هذا معناها ، وهو أيضاً انقياد لأوامر الله وأوامر رسوله عليه الصلاة والسلام ، وأعظم شيء في الدين يؤمر العباد بتحقيقه هذه المباني المذكورة في الحديث . ولهذا صح في حديث آخر أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((بني الإسلام على خمس ؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن مُحَّمداً رسول الله وإقام الصلاة وإتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام)) ؛ فجعل هذه الخمس مباني للإسلام بمعنى أنها أعمدة ينبني عليها الإسلام ويقوم . هذا تفسير الإسلام ، وهو تفسيرٌ له من النبي عليه الصلاة والسلام بأمور وشرائع ظاهرة وهي الشهادتان والصلاة والصيام والزكاة والحج ؛ شرائع ظاهرة .

ثم بعد ذلك فسر الإيمان بقوله : ((**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره**)) ؛ وهذه الستة ماذا ؟ أين مكانها ؟ القلب ، هذه الستة كلها اعتقادات مكانها القلب؛ ففسر الإسلام بالشرائع الظاهرة ، وفسر الإيمان بالاعتقادات الباطنة التي مكانها القلب ؛ وفي ضوء ذلك تستطيع أن تعرف حقيقة الإسلام وحقيقة الإيمان ، وأيضاً تستطيع أن تعرف الفرق بين المسلم والمؤمن ، الآن إذا

قرأت قول الله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب:٣٥] وقيل لك : ما الفرق بين مسلم ومؤمن ؟ أو قيل لك : من المسلم ومن المؤمن ؟ في ضوء حديث جبريل يتضح لك الأمر ويتبين لك .

فإذا قيل : من المسلم ؟ تقول مجيباً على هذا السؤال مستنداً على حديث جبريل المشهور تقول : المسلم هو الذي يأتي بشرائع الإسلام الظاهرة ، لكن إلى هذا الحد التعريف لم يتم؛ لأنه يوجد من يأتي بشرائع الإسلام الظاهرة وفي القلب على خلاف ذلك ، فيكون في الظاهر يأتي بالشرائع وفي الباطن على خلاف ذلك هذا من هو ؟ المنافق ، المنافق هو الذي يأتي بالشرائع الظاهرة ولكن الباطن خراب تباب ليس فيه إيمان ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون:١] ، في الآية الأخرى قال : ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة:١٤] ، في الآية الأخرى قال : ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [النساء:١٤٢] يعني كل هذه الأعمال مراءاة أما الباطن شيء آخر .

إذاً نعود للسؤال مرة أخرى : من المسلم ؟ المسلم هو الذي يأتي بشرائع الإسلام الظاهرة وعنده من الإيمان القدر الذي يصحح إسلامه ؛ هذه لابد أن تضاف . المسلم هو الذي يأتي بشرائع الإسلام الظاهرة ؛ يصلي يصوم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وعنده –أي في قلبه– من الإيمان ما يصحح إسلامه ، لا يُشترط أن يمتلئ القلب إيماناً ، بل يكفي ليكون مسلماً أن يوجد في القلب القدر الذي يصحح الإسلام ، ما هو القدر الذي يصحح الإسلام ؟ هو الإيمان الجازم بهذه الأصول؛ بمعنى أن لا يكون عنده شك في الإيمان بالله ولا بالكتب ولا بالرسل ولا باليوم الآخر ولا بالقدر ، لا يكون عنده شك في ذلك؛ لأنه إن وجد الشك ارتفع الجزم ، وإذا ارتفع الجزم انتفى الإيمان ووُجد الكفر وحبطت الأعمال ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٥] ؛ فلابد أن يكون عنده الإيمان الجازم ؛ أي الذي لا يكون فيه شك ولا ريب بهذه الأصول .

هناك شيء أعلى من الإيمان الجازم اسمه «الإيمان الراسخ»؛ هذا لا يشترط، هذه درجة أعلى ، وهي درجة أهل الإيمان ، أهل الإيمان هم الذين رسخ الإيمان في قلوبهم . إذاً المسلم هو الذي جاء بشرائع الإسلام الظاهرة وعنده من الإيمان ما يصحح إسلامه هذا المسلم .

المؤمن من هو ؟ أجب على السؤال في ضوء حديث جبريل قال : ((الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره)) فتقول: المؤمن هو الذي تحقق الإيمان في قلبه ودخل وتمكن ورسخ؛

هذا هو المؤمن ، ومن المعلوم أن من لوازم تحقُّق القلب بالإيمان أن تصلح الجوارح بالأعمال ، ولهذا قال العلماء : «كل مؤمن مسلم» لأنه إذا تحقق القلب فعلاً بالإيمان ورسخ الإيمان في القلب الجوارح ستعمل وتنقاد وتستسلم وتذعن، ولهذا قال العلماء «كل مؤمن مسلم» ، لكن العكس : هل كل مسلم مؤمن ؟ يعني هل كل من جاء بشرائع الإسلام تحقق الإيمان في قلبه؟ ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ هذه درجة أعلى ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤] يعني ما زلتم في درجة أقل ، درجة الإيمان لم تبلغوها ، لا تقولوا آمنا لأنكم لم تبلغوا درجة الإيمان، ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ يعني أنتم ما زلتم في هذه الدرجة ، أما درجة الإيمان لم تبلغوها بعد .

سعد ﷺ كان واقفاً عند النبي عليه الصلاة والسلام وكان يعطي عطايا ؛ فقال : يا رسول الله ما لك عن فلان ؟ - يعني لم تعطه - وإني لأراه مؤمناً ؟ قال : ((أو مسلماً)) نبهه إلى هذا الأمر ، قال : ((أو مسلماً)) لأن درجة الإسلام أقل ودرجة الإيمان أعلى . وإذا عرفت أن درجة الإيمان أعلى من درجة الإسلام فمعنى ذلك: أن الدرجة العالية لا يوصل إليها إلا بتحقيق الدرجة التي دونها . ولهذا كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً .

إذاً من المؤمن في ضوء حديث جبريل ؟ المؤمن هو الذي تحقق الإيمان في قلبه ورسخ في نفسه ، ومن كان بهذا الوصف جوارحه ستصلح تبعاً لذلك ، والجوارح تبع لمرادات القلوب كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)) ؛ فالقلب إذا عُمر بالإيمان الجوارح كلها تصلح تبعاً له . ولهذا يؤثر عن أبي هريرة ﷺ أنه قال : «القلب ملك والجوارح جنوده ؛ فإذا طاب الملك طاب الجند ، وإذا خاب الملك خاب الجند» ، أورد هذا شيخ الإسلام ابن تيمية وقال كلاماً معناه : أن كلام النبي ﷺ أدق؛ أو عبارة نحوها . لأن الملك قد يطيب ويخيب بعض الجند، والملك قد يفسد ويطيب بعض الجند ، أما القلب ليس فيه هذا الأمر ؛ إذا صلُح الجوارح كلها تصلح تبعاً له لأن الجوارح لا تتخلف عن مرادات القلوب .

وبهذا نعلم أن القلب إذا تحقق بالإيمان وعمر بالإيمان ورسخ الإيمان فيه الجوارح صلحت تبعاً له ، وهذا معنى قول العلماء رحمهم الله : «كل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً » .

ثم بعد ذلك تأتي درجة أعلى من هاتين الدرجتين وهي درجة الإحسان ، قال : ((أخبرني عن الإحسان)) والإحسان أصل هذه الكلمة في مدلولها اللغوي : الإتقان والإجادة ، فما هي درجة الإتقان والإجادة وأن تبلغ في الدين الذروة والدرجة العالية الرفيعة ؟ ما الإحسان في الدين ؟ متى يكون الإنسان أتقن دينه وجاء منه بالدرجة العليا والمنزلة الرفيعة ؟ ما الإحسان -يعني في الدين- متى يكون الإنسان محسناً متقناً مجيداً في

دينه بلغ الرتبة العليا؟ « قال : أخبرني عن الإحسان » أي في الدين ، قال : ((أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) ؛ يعني أن تكون في عبادتك لله سبحانه وتعالى بهذه الحال؛ خاضعاً ، خاشعاً ، ذليلاً ، منكسراً ، مقبلاً على الله سبحانه وتعالى كأنك ترى الله ، وإن لم تكن تراه فإنه يراك ، إن لم تكن تراه ببصرك اعلم أنه يراك ويطلع عليك ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء:٢١٨-٢١٩] .

وعندما يصل العبد في عبوديته وذله وانكساره بين يدي الله تبارك وتعالى إلى هذه الدرجة –يعبد الله كأنه يرى الله– يكون بلغ الاتقان والإجادة ؛ فيكون محسناً وصل إلى درجة الإحسان . وهذه الدرجة كانت في الأولين كثيرة وفي الآخرين قليلة ، كما يوضح ذلك قول الله جل وعلا في سورة الواقعة؛ لما ذكر درجة المقربين وهم المحسنون قال : ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة:١٣-١٤] ، وكونهم في الآخرين قليل هذا ليس مثبطاً للإنسان بل هذا دافع للإنسان أن يجاهد نفسه ويسأل ربه تبارك وتعالى أن يعينه ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] يجاهد نفسه بتحقيق الإحسان . وأعظم ما يتحقق به الإحسان : معرفة الله جل وعلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلا وبما تعرَّف إلى عباده به في كتابه وفي سنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، فكلما عظمت معرفة العبد بالله زاد تحقق الإيمان في قلبه ورسوخه فيه ، وبدأ صعوداً وارتقاء إلى الإحسان والإتقان في دينه . قال : ((أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) .

في ضوء الحديث عرفنا الإسلام والإيمان والإحسان وعرفنا أيضاً المسلم والمؤمن والمحسن . أحد العلماء من المتقدمين ضرب مثالاً توضيحياً مفيداً لهذه الدرجات ؛ وضع ثلاثة دوائر: دائرة صغيرة ، ثم تحيط بها دائرة أوسع منها، ثم تحيط بها دائرة ثالثة أوسع وقال : الإحسان هو هذه الدائرة ، يعني الدائرة الصغيرة التي في الوسط ، والإيمان: الدائرة الأوسع ، والإسلام: الدائرة الأوسع ؛ أول ما يدخل الإنسان لدائرة الدين يدخل الإسلام : أشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رسول الله ويبدأ بشرائع الإسلام ؛ أصبح مسلماً دخل في دائرة الإسلام ، تعمق في الدين وعرف حقائق الإيمان وقوي الإيمان في قلبه وتمكن في نفسه ورسخ دخل للدائرة الأخرى التي هي دائرة الإيمان ، زاد حظه وقوي نصيبه من الإيمان وترقى في رتبه ودرجاته إلى أن بلغ به الحال في تقربه إلى الله وعبادته لله وإتيانه بالطاعات والعبادات إلى أن أصبح يعبد الله كأنه يرى الله دخل في درجة الإحسان .

الذي في دائرة الإحسان هو أيضاً في دائرة الإيمان وهو أيضاً في دائرة الإسلا؛م ولهذا «كل محسن مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً ، وليس كل مؤمن محسناً» ، فالذي في دائرة الإحسان إن خرج منها يكون

في دائرة الإيمان ، فإن خرج منها يكون في دائرة الإسلام ، فإن خرج من دائرة الإسلام ليس بعد الإسلام إلا الكفر ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾[يونس:٣٢] ، إذا خرج من دائرة الإسلام ليس هناك إلا الكفر بالله تبارك وتعالى؛ يكون من أهل النار. من يخرج من هذه الدوائر يكون من أهل النار ، إن مات على ذلك كان من أهل النار مخلداً فيها أبد الآباد .

فهذه مراتب الدين الإسلامي ، والمصنف رحمه الله سيتكلم عن أركان كل مرتبة .

مرتبة الإسلام أركانها خمسة –ستأتي عند المصنف ومرت معنا في حديث جبريل– شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ هذا الركن الأول ؛ الشهادتان ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام ؛ هذه أركان الإسلام . والدليل على أنها أركان للإسلام قول النبي عليه الصلاة والسلام : ((بني الإسلام على خمس)) ؛ بمعنى أنها للإسلام بمثابة الأعمدة للبناء

والبيت لا يبتنى إلا بأعمدة ولا عماد إذا لم يرسَ أوتادُ

فهي للإسلام بمثابة الأعمدة ، قال : ((بني الإسلام على خمس)) وذكر هذه الخمس.، فهذه الخمس تعد أركانًا ينبني عليها . والإيمان أركانه ستة وستأتي عند المصنف رحمه الله تعالى . والإحسان له ركن واحد وأيضاً سيأتي عند المصنف رحمه الله تعالى ؛ وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال رحمه الله : ((**فأركانُ الإسلامِ خمسةٌ : شهادةُ أنْ لا إله إلاّ اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وإقامُ الصلاةِ، وإيتاءُ الزكاةِ، وصومُ رمضانَ، وحجُّ بيتِ اللهِ الحرامِ**)) ثم بدأ رحمه الله تعالى يفصِّل في هذه الأركان بعض الشيء فيذكر كل ركن منها ويذكر معه دليله من كلام الله سبحانه وتعالى .

تتمة لموضوع مراتب الدين ؛ هذه المراتب جاء ذكرها في قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾[فاطر:٣٢-٣٣] ؛ الواو في قوله ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ تتناول من ؟ ذُكر في الآية أصناف ثلاثة: ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات ، ثم قال : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ هل قوله ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ تتناول الثلاثة : الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات ؟ أم أنها خاصة بأقرب مذكورَين وهما : المقتصد والسابق بالخيرات ؟ هل تتناول الجميع ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ أي يدخلها الظالم لنفسه ويدخلها المقتصد ويدخلها السابق بالخيرات ؟ أو هي خاصة بالمقتصد وبالسابق بالخيرات ؟ الجواب على ذلك يحتاج إلى

أمرين : يحتاج إلى فهم السياق كاملاً ، ويحتاج أيضاً إلى فهم ما المراد بالظالم لنفسه ؟ وما المراد بظلم النفس هنا ؟ لأن الظلم إذا أطلق في القرآن :

- تارةً يراد به : الظلم الذي هو الشرك والكفر بالله .
- وتارةً يراد به : الظلم الذي هو المعاصي والذنوب التي دون الكفر .

فنرجع للآية وننظر ما المراد بالظلم هنا ؟ هل المراد بالظلم في قوله ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ هل المراد ظلَمها بالمعصية التي هي دون الكفر ؟ أو ظلَمها بالشرك والكفر ؟ أي المعنين مراد ؟ إن كان المراد " ظلمها " أي بالشرك والكفر ليس داخل ، لا يدخل الجنة مشرك أو كافر ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف:٤٠] ، وإن كان المراد ظلم نفسه بالمعاصي التي هي دون الكفر فهل يدخل الجنة أو لا ؟ الذي ظلم نفسه بمعصية دون الكفر هل يدخل الجنة أو لا يدخلها ؟ الجواب : نعم يدخلها ، لكن لا يلزم من دخوله الجنة أن يكون دخولاً أولياً ، بل ربما مر قبل دخوله الجنة بمرحلة تعذيب في النار ،كما جاءت النصوص دالة على دخول عصاة الموحدين النار وبقاءهم فيها على قدر ذنوبهم تمحيصاً لهم وتطهيراً ثم بعد ذلك يدخلون الجنة . وقد بيَّن النبي عليه الصلاة والسلام صفة خروجهم من النار في الحديث الذي في الصحيحين ، قال عليه الصلاة والسلام : ((إذا أذن الله عز وجل بخروجهم أماتتهم النار إماتة فكانوا فحما)) يعني مثل قطع الفحم ((ثم يخرجون من النار ضبائر ضبائر)) ما معنى «ضبائر ضبائر» ؟ أي جماعات جماعات ودفعات دفعات ، لماذا لم يخرجوا جميعاً دفعة واحدة ؟ لأن كبائرهم في الدنيا متفاوتة فلم يخرجوا من النار دفعة واحدة وإنما يخرجون على دفع ، لأن الكبائر التي أدخلتهم النار هم متفاوتون فيها ، قال : ((فيخرجون ضبائر ضبائر)) يعني جماعات جماعات (ويُلقون في نهر الفردوس)) تطرح هذه القطع المتفحمة تلقى في نهر الفردوس قال : ((فيحيون بمائه وينبتون كما تنبت الحِبّة في حميل السيل)) .

هؤلاء ظالمون لأنفسهم لكن هل ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك ؟ لو ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك لكان دخولهم النار دخول تخليد وتأبيد ، أما من كان ظلمه لنفسه بالمعاصي التي دون الشرك فإن دخوله للنار لا يكون دخول تخليد وتأبيد وإنما يكون دخول تطهير وتنقية ؛ يدخل ليطهر وينقى . الكافر المشرك لا يدخل النار ليطهر وينقى لأن خبث الشرك لا تطهره النار ولهذا يدخل النار ليبقى فيها أبد الآباد ﴿ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ .

فإذاً الظالم لنفسه في قوله ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ ما المراد به ؟ هل المراد به الذي ظلم نفسه بالمعصية؟ أو الذي ظلم نفسه بالشرك؟ اقرأ الآيات ويأتيك الجواب؛ لما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الأقسام الثلاثة ﴿

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ ذكر ثوابهم في الجنة، بعدها بقليل قال : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر:٣٦-٣٧]

؛ هل قوله «الظالمين» هنا هي نفس الظالمين هناك : ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ ؟ لا، ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أي الكافرين المشركين ، الظلم هنا المراد به: الشرك . والظلم الذي في الأول ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ أي الظلم بالمعاصي والكبائر التي دون الشرك ، هذا واضح تماماً في السياق .

وعلى هذا فإن ورثة الكتاب أهل الإسلام ذُكروا في الآية أقساماً ثلاثة : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ ورثة الكتاب ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ مُصطفين ومن عباد الله ، وختم الآية بقوله : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ ، ذكرهم أقساماً ثلاثة ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ ؛ فإذاً المراد بالظالم لنفسه هنا من هو ؟ الذي ظلم نفسه بالذنوب والمعاصي التي دون الشرك؛ بمعنى أنه ترك بعض الواجبات التي لا يكون تركها كفراً ، أو فعل بعض المحرمات التي لا يكون فعلها كفراً ؛ هذا ظالم لنفسه . المقتصد من هو ؟ الذي فعل الواجب وترك المحرم، مقتصد ؛ فعل الواجب وترك المحرم . السابق بالخيرات هو الذي إضافةً إلى فعل الواجبات وترك المحرمات نافس في الرغائب وأنواع المستحبات .

والعلماء رحمهم الله يقولون : السابق بالخيرات والمقتصد كلاهما يدخل الجنة دخولاً أولياً بدون حساب ولا عذاب ، ودرجتهما في الجنة متفاوتة، والظالم لنفسه يدخل الجنة لكنه قد يمر قبل دخوله لها بمرحلة تطهير وتنقية في النار ثم يدخل الجنة .

نعود إلى السؤال السابق ؛ قول الله تعالى : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ الواو تشمل الثلاثة أو لا ؟ تشمل الثلاثة؛ الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات ، إلا أن السابق بالخيرات والمقتصد دخولهما للجنة دخولاً أولياً بدون حساب ولا عذاب -نسأل الله العظيم لنا أجمعين من فضله- ، والظالم لنفسه يدخل الجنة لكنه قد يمر قبل ذلك بمرحلة تطهير وتمحيص وتنقية في النار والكل يدخل الجنة . ولهذا الإمام المفسر العلامة الشيخ الشنقيطي يعظِّم الواو هذه ، جاء في تفسيره في مواضع كثيرة إذا جاء عند هذه الواو يقف عند الواو : ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ يعظم الواو هذه ، وهذا من بصيرته رحمة الله عليه بالقرآن ؛ يقف عند الواو ويقول : هذه الواو ينبغي أن تكتب بكذا ويعظم الواو لأنها شملت هؤلاء كلهم ؛ الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات

، الكل يدخل الجنة ، لكن السابق بالخيرات والمقتصد يدخلون بدون حساب ولا عذاب ، والظالم لنفسه عرضة للحساب والعقاب ، عرضة لدخول النار ، وإذا دخل النار لا يخلد فيها .

وهذا يفيدك فائدة عظيمة في مكانة التوحيد؛ فالتوحيد إذا حققه العبد لم يدخل النار كان مانعاً من دخول النار ، وإذا لم يحققه العبد يعني أتى بأمور تنقِصه من المعاصي وما لا يكون كفراً فإنه يمنع من الخلود في النار ، وقد جاء في الحديث القدسي أن الله سبحانه وتعالى يقول : «أخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان» هذا يدلنا على مكانة التوحيد العظيمة ومنزلته العلية .

والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا مُحَّمد وآله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الحادي عشر

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبينا مُحَّد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

قال شيخ الإسلام مُحَّد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين في كتابه «الأصول الثلاثة» :

فأركانُ الإسلامِ خمسةٌ: شهادةُ أنْ لا إله إلاّ اللهُ وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وإقامُ الصلاةِ، وإيتاءُ الزكاةِ، وصومُ رمضانَ، وحجُّ بيتِ اللهِ الحرامِ. فدليلُ الشّهادةِ قولُهُ تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[آل عمران:١٨]، **ومعناها لا معبودَ بحقٍّ إلا اللهُ ؛ «لا إله» نافيًا جميعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دونِ اللهِ، «إلا الله» مُثْبِتًا العبادةَ للهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ في عبادتِهِ، كما أنَّه لا شريك له في مُلْكِهِ . وتفسيرُها الذي يوضّحُها قولُه تعالى:** ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الزخرف:٢٦-٢٨]، **وقولُه:** ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران:٦٤] .

****

المصنف رحمه الله تعالى قد ذكر في الأصل الثاني أن مراتب الدين الإسلامي ثلاثة وهي: الإسلام والإيمان والإحسان ، ثم شرع رحمه الله في بيان أركان كل مرتبة من هذه المراتب ؛ فالإسلام أركانه خمسة ، والإيمان أركانه ستة ، والإحسان له ركن واحد ، وكلها يأتي بيانها عند المصنف رحمه الله تعالى .

وبدأ هنا ببيان ما يتعلق بأركان مرتبة الإسلام ، فذكر أن أركان الإسلام خمسة وهي : شهادةُ أنْ لا إله إلاّ اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وإقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، وصومِ رمضانَ، وحجّ البيتِ الحرامِ لمن استطاع إليه سبيلاً. وهذا الأركان الخمسة للإسلام ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام مجتمعة في بعض الأحاديث ؛كحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : ((بني الإسلام على خمس : أنْ لا إله إلاّ اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وإقام الصلاةِ، وإيتاء الزكاةِ، وصوم رمضانَ، وحجّ البيتِ الحرامِ)) ، وفي حديث جبريل المشهور لما قال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ : «أخبرني عن الإسلام؟» قال : ((أن تشهد أنْ لا إله إلاّ

اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وتقيم الصلاةِ، وتؤتِي الزكاةِ، وتصوم رمضانَ، وتحجّ البيتِ الحرامِ إن استطعت إليه سبيلاً)) .

ثم بعد أن ذكر المصنف رحمه الله أركان الإسلام الخمسة إجمالاً شرع في ذكر شيء من التفاصيل لهذه الأنواع الخمسة ، وبدأ أول ما بدأ بـ«شهادة أن لا إله إلا الله» وهي أعظم أركان الإسلام وأعلى شعب الإيمان ،كما قال عليه الصلاة والسلام : ((الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من شعب الإيمان)) . و«لا إله إلا الله» هي أول شيء يُدعى إليه في هذا الدين ((ليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله)) ، وهي أعظم الكلمات وأجلها على الإطلاق كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((وخير ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير)) ؛ فهي كلمة عظيمة ليس في الكلمات كلمة أعظم منها ، فهي أعظم الكلمات وأجلها وأرفعها على الإطلاق .

بدأ المصنف رحمه الله ببيان ما يتعلق بالشهادة ؛ شهادة أن لا إله إلا الله قال : ((**فدليلُ الشّهادةِ**)) ؛ «الشهادة» هذه الكلمة معرفةً بأل لا تنصرف عند الإطلاق إلا لأعظم الشهادات وأجلِّها وهي شهادة أن لا إله إلا الله ، فـ«لا إله إلا الله» أعظم شهادةٍ لأعظم مشهود به، «لا إله إلا الله» أعظم شهادة يشهد بها العبد ، العبد ربما في حياته يشهد بأمور كثيرة ، وأعظم شيء يشهد به العبد الشهادة بـ«لا إله إلا الله» ؛فهي أعظم ما يشهد به العبد لأعظم مشهودٍ به وهو توحيد الله جل وعلا ، فهي شهادة عظيمة .

ولهذا ينبغي أن تعلم أيها الأخ المسلم أن أعظم نعمة وأكبر منّة وأجلَّ عطية ينعم الله بها عليك في هذه الحياة أن يجعلك من أهل شهادة أن لا إله إلا الله ، هذه أكبر نعمة وأعظم نعمة على الإطلاق ، ليس في النعم أعظم من هذه النعمة؛ أن جعلك من أهل لا إله إلا الله ، من الشاهدين بـ«لا إله إلا الله» ، ولهذا قال بعض السلف : «ما أنعم الله على عبده نعمة أعظم من أن عرَّفه لا إله إلا الله» . ودليل هذا بل دلائله في القرآن والسنة كثيرة ؛ خذ مثالاً على ذلك: أوائل سورة النحل وهي تُعرف عند أهل العلم بـ«سورة النِّعَم» لكثرة النعم التي عددها جل وعز في هذه السورة ممتناً على عباده بها ، ذكر نعماً كثيرة؛ نعمة المسكن ، ونعمة المطعم ، ونعمة الشراب واللباس ، ونِعم كثيرة عددها جل وعلا في هذه السورة ، لكنه سبحانه بدأ عدّ هذه النعم بأعظم النعم وهي نعمة لا إله إلا الله ، فأول نعمة تقرأها في هذه السورة «سورة النعم» هي نعمة لا إله إلا الله ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل:١-٢] هذه أول نعمة تُذكر في سورة النعم سورة النحل .

ولهذا أكبر النعم وأجلها وأعظمها هي نعمة الشهادة بلا إله إلا الله ، وواجب على كل من أكرمه ربه سبحانه وتعالى بهذه الشهادة أن يرعى هذه الشهادة حق رعايتها ، وأن يجاهد نفسه على تتميمها وتكميلها والإتيان بضوابطها وشروطها في ضوء كتاب الله جل وعلا وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وأن يحذر أشد الحذر من كل ناقضٍ لها أو قادح فيها أو منقِصٍ أيضا لهذه الكلمة ؛ بل يجاهد نفسه على تتميمها وتكميلها إلى أن يلقى الله جل وعلا وهو من أهل هذه الكلمة حقاً وصدقاً غير مغير ولا مبدل .

قال : ((**فدليلُ الشّهادةِ**)) يعني دليل شهادة أن لا إله إلا الله : **قولُهُ تعالى** ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ ؛ ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لاحظ أموراً في هذه الشهادة :

- ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ الشاهد هنا رب العالمين
- ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ والمشهود به: توحيده سبحانه وتعالى وحدانيته ،وأنه جل وعلا وحده المستحق للعبادة .

فاجتمع في صدر هذه الآية أعظم شهادة من أعظم شاهد في أعظم مشهود به ؛ أعظم شهادة : لا إله إلا الله ، من أعظم شاهد وهو رب العالمين جل وعلا ، من أعظم مشهود به وهو توحيده جل وعلا وإخلاص الدين له .

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أي وملائكة الرحمن وهم خلقٌ لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١] وكلهم يشهد بذلك ، يشهد أن لا إله إلا الله ، وهم خلقٌ من خلق الله لم نرهم لكننا نؤمن بهم ؛ نؤمن بوجودهم ، نؤمن بأسمائهم التي وردت ، نؤمن بأوصافهم ، نؤمن بوظائفهم المتنوعة الكثيرة التي جاءت مبينة في الكتاب والسنة كل ذلكم نؤمن به، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر:٧] ، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر:٧٥] ؛ فالملائكة خلق من خلق الله سبحانه وتعالى وهم يشهدون هذه الشهادة العظيمة لا إله إلا الله . وليس في الملائكة ملك إلا وهو من أهل هذه الشهادة ينطق بها ويشهد بها جميعهم بدون استثناء ، الملائكة كلهم يشهدون هذه الشهادة من أولهم إلى آخرهم وهم خلق لا يعصي الله ، لا يوجد في الملائكة شيء اسمه معصية ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦] . فذكر جل وعلا شهادة الملائكة قال : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أي يشهدون أنه لا إله إلا الله .

﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ خص أهل العلم به سبحانه بالذكر دون غيرهم تشريفاً لهم وتعليةً لقدرهم ورفعة لشأنهم وبياناً لفضلهم على غيرهم ، ويكفي أهل العلم شرفاً وفضلاً أن ذكر جل وعلا شهادتهم بأن لا إله إلا الله مقرونةً بشهادته وشهادة ملائكته؛ فهذا شرف لأهل العلم وأيما شرف ! وفضلٌ يدل على رفعة العلماء وعلو مكانتهم.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ والمراد بأولي العلم: أي أولي العلم بدينه وشرعه ، وعندما يأتي الثناء على العلماء وأهل العلم في القرآن والسنة المراد به أهل العلم بشرعه ودينه؛ كقوله : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩] ، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨] ، ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:١١] ونظائر هذه الآيات المراد بهم: أهل العلم به وبشرعه وبدينه . وهم المراد بأهل العلم إذا أطلق هذا اللقب ؛ عندما يقال : «أهل العلم أو العلماء» المراد به أهل العلم بشرعه ودينه ، ومن سواهم ينسبون إلى العلوم التي تعلموها ، فهو وصفٌ نسبي يُقال :عالم في الطب ، عالم في الهندسة ، عالم في الزراعة ، عالم في كذا يُنسب إليه ، لكن أهل العلم أهل الشرف أهل الفضل أهل الثناء في الكتاب والسنة المراد بهم أهل العلم بالله سبحانه وتعالى وبشرعه وبدينه ، وهؤلاء هم الذين ذكر الله سبحانه وتعالى شهادتهم معلياً من شأنهم وقدرهم قال : ﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ .

﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهذا بيان لشأنه جل وعز الموحَّد المقصود بالعبادة المفرود بالذل والطاعة؛ شأنه جل وعلا أنه قائم بالقسط ؛ أي قائم بالعدل . فذُكر في الآية التوحيد والعدل ، فالله جل وعلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي يُخص بالذل والخضوع والانكسار والطاعة وهو المعبود بحق ولا معبود بحق سواه ، وهو جل وعلا قائم بالقسط؛ أي قائم بالعدل جل وعلا ؛ عدلٌ في شرعه ، وعدلٌ في جزائه وقضائه وأحكامه ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩] .

قال : ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ؛ قَائِمًا بِالْقِسْطِ: أي قائماً بالعدل وهذه شهادة منه لنفسه جل وعلا بذلك ، شهد لنفسه بذلك أنه لا إله إلا هو ، وأنه جل وعلا قائم بالقسط ؛ أي قائم بالعدل .

وقوله ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هذان اسمان لله ختمت بهما الآية؛ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، و«العزيز» يدل على وصفه بالعزة وهو على أنه القاهر الذي لا يغلب جل وعلا ، و«الحكيم» أي الذي له الحكم وله أيضاً الحكمة في أفعاله وأحكامه وأقضيته سبحانه وتعالى .

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذا دليل الشهادة ، وهو دليل يدل على مكانة الشهادة في الدين وعظم شأنها ، وأنها أعظم شهادة لأعظم مشهود به وهو وحدانية الله وتوحيده ووجوب إفراده تبارك وتعالى بالعبادة . أفادت هذه الآية فضل هذه الشهادة ومكانتها وعظم شأنها في الإسلام . والله جل وعلا ذكر أنه يشهد بها وأن الملائكة تشهد بها وأن أولوا العلم يشهدون بها ، والشهادة كما بيَّن أهل العلم لا تكون إلا عن علم بالمشهود به واعتقادٍ لذلك وتكلم به وإعلان ؛ هذه مراتب أربعة لابد من توافرها في الشهادة لتكون شهادة : العلم ، والاعتقاد ، والتكلم بهذه الشهادة –النطق بها– والإعلام يُعلِم ويعلن ذلك .

لما ذكر المصنف رحمه الله تعالى الشهادة ودليلها قال : ((**ومعناها**)) ؛ أراد أن ينبه فيما سيأتي من بيان أن لا إله إلا الله ليست كلمة لا معنى لها أو لفظة لا مدلول لها ، بل هي لفظةٌ مشتملة على أعظم المقاصد وأجل الغايات وأنبل الأهداف على الإطلاق ، ليست لفظةً لا معنى لها أو لا مدلول لها ، بل هي لفظة مشتملة على أعظم المعاني وأجل المقاصد وأنبل الغايات .

وإذا عُلم هذا فليُعلم أن شهادة أن لا إله إلا الله لا تكفي من قائلها إلا إذا كان عالماً بمعناها عارفاً بمدلولها محققاً لما تدعو إليه من الإخلاص والتوحيد، لابد من ذلك ؛ لابد فيها من العلم ، ولابد من العمل بما تدل عليه من التوحيد ، ولابد أيضاً من الصدق ليكون من أهلها حقاً . أما أن يشهد بأن لا إله إلا الله ولا يدري ما هي هذه الكلمة ولا يدري على أي شيء تدل!! أو يشهد أن لا إله إلا الله ويعرف معناها لكنه ينقضها بأعماله بأفعال الشرك والكفر!! أو ينطق بها وليس صادقاً من قلبه !! هذا كله لا يكفي ، لابد من العلم والعمل والصدق ، ولهذا قال العلماء في هذه الأمور الثلاثة والتنبيه على أهميتها في الشهادة قالوا: «بالعلم يخرج من طريقة النصارى ، وبالعمل يخرج من طريقة اليهود ، وبالصدق يخرج من طريقة المنافقين» ؛ فإذا كان من أهل العلم خرج عن طريقة النصارى الذين يعملون ولا يعلمون ، وبالعمل يخرج من طريقة اليهود الذين يعلمون ولا يعملون ، وبالصدق يخرج من طريقة المنافقين الذين يظهرون ما لا يبطنون . فلابد من العلم ، ولابد من العمل ، ولابد من الصدق ليكون من شهد بهذه الكلمة من أهلها حقاً وصدقاً ، ولهذا لابد من معرفة معنى «لا إله إلا الله» وما تدل عليه من الإخلاص والتوحيد لله جل وعلا وإفراده بجميع أنواع العبادة ، ولهذا بدأ رحمه الله بقوله ((ومعناها)) ؛ لأنها لا تفيد من نطق بها إلا إذا كان عالماً بمعناها .

قال : ((**ومعناها: لا معبودَ بحقٍّ إلا اللهُ**)) هذا هو معنى لا إله إلا الله ، وهو تفسير مختصر جامع ؛ لا إله إلا الله معناها : لا معبود بحق إلا الله .

لماذا قال : لا إله إلا الله أي : لا معبود بحق ؟ لأن معنى الإله في لغة العرب: المعبود. والتأله: التعبد ، والمألوه : المعبود ، والإله معناه : المعبود ، مِن أَلَه يأله إلهةً أي : عبد يعبد عبادةً ، فهو بمعنى المعبود . و «الإله» مثل المعبود في أصل دلالته وفي وزنه أيضاً : أَلَه يأَلَه عبَد يعبُد ، عبادةً إلهةً، والتأله: التعبد . فلا إله : أي لا معبود ؛ هذا معنى الإله . ولهذا إذا قال قائل : لا إله : أي لا خالق أو لا رازق أو لا منعم هذا لم يفهم معنى لا إله إلا الله ؛ لا في مدلولها اللغوي ولا أيضاً في مدلولها الشرعي . فالإله لغة : المعبود ؛ أي الذي يُذل له ويخضع ويعبد، تُصرف له العبادة .

قال : (((**لا إله إلاّ اللهُ** : **أي لا معبودَ بحقٍ** إلا الله)) ؛ «بحقٍ» هذه محذوف مقدر ، لأن لا النافية للجنس اسمها إله ، وخبرها محذوف مقدر تقديره بحق ، ولابد أن يكون هذا هو المقدَّر دون غيره . أرأيتم لو أن شخصاً جعل المحذوف المقدر "موجود"، كأن يقول : "معنى لا إله إلا الله: أي لا إله موجود إلا الله" يكون المعنى فاسداً ، لماذا ؟ لأن الآلهة الموجودة المعبودة بالباطل لا حد لها ولا عد ولا حصر لها ، فإذا قدَّر المحذوف بـ :موجود " يعطي معنى فاسداً مناقضاً لمدلول لا إله إلا الله ، فلابد أن يكون المحذوف المقدر «بحق» ، فيكون المعنى : لا إله إلا الله أي لا معبود بحق إلا الله ، لأن هناك معبودات كثيرة ولكن بالباطل ولهذا إذا أردت دليلاً على تقدير المحذوف بـ «حق» فاقرأه في القرآن في مواضع كثيرة مثل قوله تعالى : ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد:١٤] وقوله جل وعلا : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [الحج:٦٢] والآيات في هذا المعنى كثيرة . فلا إله إلا الله معناها : لا معبود بحق إلا الله . والمعبود : هو الذي يُخضع له ويُذل، تُصرف له العبادة من دعاء ونذر وذبح إلى غير ذلك من أنواع العبادة التي مر معنا شيئاً منها عند المصنف رحمه الله تعالى ، فهذا هو معنى «لا إله إلا الله» : لا معبود بحق إلا الله .

ثم زيادة في البيان والإيضاح قال : ((**لا إله**)) الذي هو أول هذه الكلمة ((**نافيًا جميعَ مَا يُعْبدُ مِنْ دونِ اللهِ، إلا الله مُثْبِتًا العبادةَ للهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ في عبادتِهِ**)) وبهذا تعلم أن لا إله إلا الله قائمة على ركنين : نفي وإثبات؛ نفيٌ عام في أولها وإثبات خاص في آخرها ، «لا إله» نفي عام ، «إلا الله» إثبات خاص . النفي العام لكل ما يُعبد سوى الله ، «لا إله» نفي لكل ما يعبد ، نفي لعبادة كل من سوى الله ، ولهذا تسمى «لا» هنا : لا التبرئة، لا البراءة ؛ فهنا تبرأ وتعلن براءتك نافياً جميع الآلهة وجميع المعبودات نفياً عاماً مستثنياً رب العالمين جل وعلا «إلا الله» وسيأتي معنا ﴿الَّذِي خَلَقَنِي﴾ [الشعراء:٧٨] .

فأولها نفي عام ، وآخرها إثبات خاص ؛ وهذا هو التوحيد ، التوحيد لا يكون إلا بالنفي والإثبات ، إن نفى ولم يثبت لا يكون موحداً ، وإن أثبت ولم ينفِ لا يكون موحداً ، فالتوحيد لا يكون إلا بالنفي والإثبات . من أجل التوضيح فقط أضرب لكم مثالاً ، فقط للتوضيح حتى نعرف أن التوحيد في مدلوله

اللغوي وأصل معناه لا يكون إلا بالنفي والإثبات ؛ لو قال قائل : "ليس زيدٌ في البيت" نفى دون أن يثبت ، أو قال آخر : "زيد في البيت" ، أي من اللفظين لا يفيد هذا المعنى –معنى التوحيد – ؟ لكن لو قال : "ليس في البيت إلا زيد: نفى وأثبت ، عرفتَ معنى التوحيد أنه لا يوجد في البيت إلا شخص واحد هو زيد . فبالنفي وحده لا يُستفاد توحيداً ، وبالإثبات وحده أيضاً لا يُستفاد توحيداً ، فالتوحيد لا يكون إلا بالنفي والإثبات ، ولهذا «لا إله إلا الله» كلمة التوحيد توحيد الله جل وعلا قائمة على ركنين : النفي والإثبات ، ولا يكون العبد موحداً إلا بهما ؛ فمن نفى ولم يثبت لا يكون موحداً بل يكون ملحداً ، ومن أثبت ولم ينفِ لا يكون موحداً بل يكون مشركاً ، ولا يكون موحداً إلا بالنفي والإثبات ، «لا إله» ينفي العبودية عن كل من سوى الله ، «إلا الله» يثبت العبودية بكل معانيها لله تبارك وتعالى وحده .

ولهذا قال : ((«**لا إله**» **نافيًا** –أي نافياً من شهد بهذه الشهادة ونطق بهذه الكلمة– جميع ما يُعبد من دون الله)) ((جميع ما يُعبد)) يدخل تحت النفي ماذا ؟ الملائكة، الأنبياء، الأولياء، الأشجار ، غير ذلك كل ما عبد أو يُعبد من دون الله يجب أن يكون داخلاً تحت هذا النفي «لا إله» نافياً للعبودية عن كل من سوى الله أياً كان مهما علا قدره وعلت مكانته ، «لا إله إلا الله» هذا توحيد لله ، ليس مع الله شريك فيه لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا غيرهم .

((«لا إله» نافيًا جميعَ مَا يُعْبدُ مِنْ دونِ اللهِ، «إلا الله» مُثْبِتًا العبادةَ للهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ في عبادتِهِ))

مثبتاً العبادة لله وحده . العبادة ما هي ؟ عرفناها وعرفنا شيء من أنواعها فمن قال «لا إله إلا الله» وذبح لغير الله ، أو قال «لا إله إلا الله» واستغاث بغير الله وطلب المدد من غير الله ، أو قال «لا إله إلا الله» ونذر لغير الله أيكون من أهلها ؟ لا ، لا يكون من أهل «لا إله إلا الله» حتى ينفي ما نفت ويثبت ما أثبتت فلا يكون من أهلها إلا بذلك ، قال : ((**نافيًا جميعَ مَا يُعْبدُ مِنْ دونِ اللهِ، مُثْبِتًا العبادةَ** –بجميع معانيها– **للهِ وحدَه**)) ذلاً وخضوعاً وانكساراً ودعاء ورجاء وركوعاً وسجوداً وخوفاً ورغباً ورهباً وغير ذلك كله لله ، يثبته لله ويصرفه كله لله ولا يجعل مع الله سبحانه وتعالى شريكاً في شيء من ذلك .

قال : ((**وحدَهُ لا شريكَ لهُ**)) وهذه الكلمة «وحدَهُ لا شريكَ لهُ» تأتي كثيراً في التهليلات المأثورة عن نبينا عليه الصلاة والسلام عقب «لا إله إلا الله»؛ أليس كذلك ؟ تجد في كثير من التهليلات المأثورة في السنة يقول نبينا عليه الصلاة والسلام : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» . والعلماء يقولون : أن كلمة «وحده لا شريك له» الآتية في الذكر المأثور عن النبي عليه الصلاة والسلام هي تأكيد لما دلت عليه «لا إله إلا الله» من نفي وإثبات ، لأن «لا إله إلا الله» ركنان: نفي وإثبات ؛ أكد الإثبات بقوله : «وحده» ، وأكد

النفي بقوله : «لا شريك له»، فقوله : «وحده لا شريك له» فيه اهتمام بالتوحيد وتأكيد عليه بركنيه : النفي والإثبات؛ «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» .

ومن جميل النصح وعظيمه في باب ترسيخ معنى «لا إله إلا الله» وتثبيتها في القلوب المؤمنة ما وجّه إليه نبينا عليه الصلاة والسلام وأرشد إليه وكان يواظب على فعله ألا وهو التهليلات التي ثبتت عنه عليه الصلاة والسلام أدبار الصلوات الخمس؛ كان يقول دبر كل صلاة : ((لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون)) ، هذه ثلاث تهليلات كان نبينا عليه الصلاة والسلام يقولها دبر كل صلاة ، وأمته وأتباعه بإحسان يقولونها تأسياً به دبر كل صلاة ، خمس مرات في اليوم والليلة بعد أن يسلم المسلم من صلاته يأتي بهذه التهليلات ؛ ثلاث مرات يقول : «لا إله إلا الله» ؛ المرة الأولى يقول «لا إله إلا الله» ويتبعها بقوله «وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» ، والمرة الثانية يقول «لا إله إلا الله» ويتبعها بقوله : «ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن» ، والمرة الثالثة يقول «لا إله إلا الله» ويتبعها بقوله «مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» .

ما هذا الذي تُتبع به «لا إله إلا الله» في هذه المرات الثلاث؟ وماذا يفيد؟ لابد أن ننتبه لهذا لأن هذا شيء نكرره يومياً أدبار الصلوات المكتوبة، نقول : «لا إله إلا الله» ؛ ومرة نقول عقبها : «وحده لا شريك له» ، ومرة نقول عقبها : «ولا نعبد إلا إياه» ، ومرة نقول عقبها : «مخلصين له الدين» . هذا الذي نتبع به «لا إله إلا الله» في هذه المرات الثلاث هو تثبيت لمعناها ، وترسيخ لمدلولها ، وإقامة لحقيقتها ؛ هذا هو معنى «لا إله إلا اله» .

ولهذا أيها الأخ الموفق لو قيل لك : عرِّف «لا إله إلا اله» وأردت أن تعرِّفها بتعريف جامع وشافي ووافي من خلال ما أنت تردده يومياً أدبار الصلوات المكتوبة فكيف تستخلص من هذه الكلمات المضافة إلى «لا إله إلا الله» في هذا التهليل تعريفاً جامعاً ؟ تابع معي .

في المرة الأولى قلت : «وحده لا شريك له» ، وفي المرة الثانية : «ولا نعبد إلا إياه» ، وفي الثالثة قلت : «مخلصين له الدين»، استخلص من هذا الذي تكرره كل يوم أدبار الصلوات المكتوبة تعريفاً جامعاً لـ «لا إله إلا الله» من مجموع التهليلات الثلاث ؟

ما رأيك لو قلت : «لا إله إلا الله» معناها : ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين . هذا من أجمع وأحسن ما يكون ، وتعريف أخذته من ذكرٍ نبوي يتكرر معك كل يوم ، تحفظه وتحافظ عليه ويتكرر عليك يومياً، ولهذا أنصحك أن تحافظ على هذا المعنى لـ «لا إله إلا الله » ، وإذا بليت بمبطل

يبعدك عن مدلول « لا إله إلا الله» فدعك عن باطله وحافظ على هذا التعريف الذي هو معك كل يوم يتردد على لسانك .

فإذا قيل : ما معنى «لا إله إلا الله» ؟ قل معناها : أي لا نعبد إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين. هذا التعريف مركب من ماذا ؟ من مجموع التهليلات الثلاث ؛ لاحظ أولاً : «ولا نعبد إلا إياه» نفي وإثبات ، نحن قلنا : «لا إله إلا الله» ما معناها عند الشيخ ؟ لا معبود ، من أين لنا أن «لا إله» : لا معبود ؟ هذا الحديث أمامنا وهذا الذكر نردده كل يوم : «لا نعبد إلا إياه»؛ هذا هو معنى « لا إله إلا الله » ، فلم تأتِ هذه الكلمة من فراغ ، جاءت من اللغة ومن السنة ، وجاءت أيضاً من القرآن ، ولهذا سيأتي عند المصنف ذكر آيات من القرآن تفسر «لا إله إلا الله» وتبين معناها ؛ مثل قول إبراهيم لقومه : ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾[الزخرف:٢٦-٢٧] ، ﴿مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ هذا معنى «لا إله إلا الله» وسيأتي بيانه .

«لا نعبد إلا إياه» نفي وإثبات ؛ أي نخلص العبادة لله ، «وحده لا شريك له» هذه تأكيد للإثبات وتأكيد للنفي كما سبق بيان ذلك ، «مخلصين له الدين» عرفنا معنى الإخلاص وأن معنى هذه الكلمة أن تكون العبادة صافية نقية لا يُراد بها إلا الله سبحانه وتعالى .

لتثبيت الأمر والتأكيد عليه أقول : ما معنى «لا إله إلا الله» في ضوء التهليل الذي تردده كل يوم أدبار الصلوات ؟

وهذا التعريف لم نأخذه لا من زيد ولا من عبيد، أخذناه ممن ؟ من سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام ، من هذا التهليل الذي نردده أدبار الصلوات.

«لا إله إلا الله» معناها في ضوء هذا الذكر الذي نردده أدبار الصلوات تلخص لنا في كلمة موجزة؛ معنى «لا إله إلا الله» : أن لا نعبد إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين .

ثم هذه الكلمة أو هذه التهليلات أُتبعت بدلائل للتوحيد ، يعني ذُكر معنى التوحيد وذُكر دلائل للتوحيد:

- في التهليلة الأولى تقول : « لا إله الله وحده لا شريك له و له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» هذه كلها براهين ودلائل للتوحيد ، نحن لا نعبد إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين لأنه وحده له الملك ، وحده له الحمد ، وحده على كل شيء قدير ؛ فهذه براهين ودلائل للتوحيد .
- في التهليلة الثانية : «لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن»؛ هذه أيضاً براهين للتوحيد .

- أيضاً في الأخيرة قال : «مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» ، وأيضاً ثبت أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول مع هذه الكلمات : «اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد» ؛ وهذه أيضاً براهين للتوحيد ضُمت إلى كلمة التوحيد برهاناً للتوحيد ودليلاً عليه . «لا مانع لما أعطيت» أي ما كتبته يا الله من عطاء لا يمنعه أحد كائناً من كان ، «ولا معطي لما منعت» الشيء الذي تمنعه لا يستطيع أحد أن يعطيه ، فالأمر أمرك والمن منك والعطاء عطاؤك ، «ولا ينفع ذا الجد منك الجد» أي صاحب الحظ وصاحب النصيب -لأن الجد: هو الحظ والنصيب- لا ينفعه حظه ونصيبه، «لا ينفع ذا الجد منك الجد» أي إن كان ذا حظ وذا نصيب في جاهٍ أو في مال أو في رئاسة أو في غير ذلك كل ذلك لا ينفعه ما لم يكن من أهل «لا إله إلا الله» حقاً وصدقاً .

فينبغي يا إخوان هذا التهليل الذي يكرر أدبار الصلوات المكتوبة أن نستحضر معه هذا المعنى الجليل ، فنحن نردد كل يومٍ أدبار الصلوات المكتوبة هذه الكلمات العظيمة والتهليلات المباركة التي ترسّخ التوحيد في قلوبنا وتمكنه في نفوسنا وتكون عوناً للعبد ليحقق التوحيد ، أرأيتم لو أن شخصاً يقول أدبار الصلوات : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له » ثم يقول : «لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه» ثم يقول : «لا إله إلا الله مخلصين له الدين» ، ثم بعد ذلك عرضت له حاجة وأراد أن يسأل إما شفاء من مرض أو يريد ولد أو يريد غنى أو غير ذلك ومد يديه وقال : "مدد يا فلان" ماذا يحدث حينئذ ؟ كل الذي قاله ينهدم وينتقض ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾[النحل:٩٢] ينهدم كله . ولهذا بعض الناس لم يتبصَّر في معنى هذه الكلمة ولم يتأمل في مدلولها ولم يوفَّق في عالم هدى يبين له ما تدل عليه هذه الكلمة من وجوب الإخلاص والتوحيد وإفراد الله تبارك وتعالى بأنواع العبادة ، «لا إله إلا الله» معناها : لا معبود بحق إلا الله ؛ أي لا نركع إلا لله ، ولا نسجد إلا لله ، ولا نذل ونخضع إلا لله ، ولا ندعو ونرجو إلا الله ، ولا نخاف إلا من الله ، ولا نتوكل إلا على الله ، ولا نذبح إلا له ، ولا ننذر إلا له ؛ هذا معنى «لا إله إلا الله» ؛ أن العبادات كلها نثبتها له ونصرفها له وننفيها عمن سواه أياً كان ومهما كان .

قال : ((**لا شريكَ لهُ في عبادتِهِ، كما أنَّه لا شريك له في مُلْكِه**)) ؛ الله جل وعلا ليس له شريك في الملك ولا في مقدار ذرة ، لا شريك له في الملك ، تفرد جل وعلا بملك الأرض والسماوات والجبال والأشجار.. الجميع ملك الله والجميع خلق الله ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾[سبأ:٢٢] أياً كان من يدعى من دون الله لا يملك مثقال ذرة الملك كله لله ، تفرد بالملك، تفرد بالخلق، تفرد بالرزق، تفرد بالإنعام، تفرد بالعطاء ، فالذي تفرد في هذا كله يجب أن يُفرد بالعبادة .

وحال كثير من بني آدم عجب؛ يخلقهم الله ويرزقهم الله وهو المتصرف فيهم جل وعلا ثم يتوجهون في حاجاتهم ورغباتهم إلى غيره!! إلى عبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا دفعاً ، ولا عطاء ولا منعاً ، ولا حياة ولا موتاً ولا نشوراً ، يتجه إلى عبد من العباد!! بل بعض المضلين يخاطب العوام والجهال يقول لهم : إذا نزلت بكم معضلة "اهتف بالشيخ فلان ، اهتف بسيدي فلان ، اهتف بكذا" ، من يكون ؟! وماذا بيده هذا الذي يقول المضل اهتف به ؟! ماذا بيده ؟! الأمر كله بيد الله تفرد بالملك تفرد بالخلق تفرد بالرزق ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢] .

انتبه هنا إلى فائدة جليلة في هذا الباب: المصنف يقول : ((**لا شريكَ لهُ في عبادتِهِ، كما أنَّه لا شريك له في مُلْكِهِ**)) يعني كما أن الله سبحانه وتعالى تفرد وحده بالملك والخلق والرزق فيجب أن يفرد بالعبادة ، ولعلنا على ذكر من كلام ابن كثير الذي أعقبه الآيتين من سورة البقرة قال : «الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة» ، والمصنف هنا يقول : ((لا شريكَ لهُ في عبادتِهِ، كما أنَّه لا شريك له في مُلْكِهِ)) ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ﴾ [فاطر:٣] الجواب : لا ؛ إذاً يجب أن يُفرد وحده بالعبادة ، لا يُدعى إلا هو ، ولا يُخاف إلا منه ، ولا يُتوكل إلا عليه ، ولا يصرف شيء من العبادة إلا له وحده تبارك وتعالى ولا يصرف شيء من العبادة لأحدٍ سواه.

أهل العلم يقولون : الذي يُدعى من دون الله وتُصرف له العبادة من دون الله يستحق العبادة إن توفرت فيه أحد أمور أربعة :

- الأمر الأول : أن يكون مالكاً في هذا الكون ولو شيئاً قليلاً ملكاً استقلالياً ؛ ما معنى ملكاً استقلالياً ؟ أي ملَكَه هو بنفسه دون أن يملكه الله إياه ، فهل أحد من المخلوقات يملك ولو شيئاً قليلاً ملكاً استقلالياً ؟ ولو قليل! هل يوجد ؟ قال الله تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ هذا الاحتمال الأول بطل ، لا يوجد مخلوق يملك ولا مثقال ذرة ملكاً استقلالياً ، بل الذي يملكه قلَّ أو كثر إنما ملكه بتمليك الله سبحانه وتعالى له ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران:٢٦] ؛ هذا الاحتمال الأول بطل .
- احتمال آخر دون هذا؛ إن لم يكن مالكاً أن يكون شريكاً للمالك في هذا الملك أو في بعضه ولو في شيء قليل؛ فهل لله –تنزه وتقدس– شريك في الملك ولو في شيء قليل؟ الجواب : لا ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا

مِن شِرْكٍ﴾ بطل الاحتمال الثاني . ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا إبطال الاحتمال الأول ، ثم بعده إبطال الاحتمال الثاني قال : ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ ؛ ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أي الذين يُدعون من دون الله ﴿فِيهِمَا﴾ أي السماوات والأرض ﴿ مِن شِرْكٍ﴾ أي مشاركة ولو في شيء يسير . بطل الاحتمال الثاني .

❖ إن لم يكن مالكاً ولا شريكاً للمالك هناك احتمال ثالث إن وجد استحق أن يُدعى وهو: أن يكون ظهير للمالك وعوين للمالك يستعين به المالك ويستشيره ، قال جل وعلا : ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِن ظَهِيرٍ ﴾ فنفى جل وعلا الاحتمال الثالث ؛ ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِن ظَهِيرٍ ﴾ ؛ ﴿وَمَا لَهُ﴾ أي الله ﴿مِنْهُمْ﴾ أي الذين يُدعون من دون الله ﴿ مِن ظَهِيرٍ ﴾ أي من عوين ومعين ومساعد ووزير ومشير ، نفى ذلك وأبطله .

❖ إذًا لا مالك ولا شريكاً للمالك ولا عويناً للمالك بقي احتمال رابع إن وجد أيضاً استحق أن يُعبد ، فأبطله رب العالمين قال : ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[سبأ:٢٣] ، الاحتمال الرابع هو: أن يكون يملك الشفاعة عند المالك ابتداءً، يعني بدون أذن المالك ، فهل أحد يشفع عند الله بدون إذن الله ؟ ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ ، والشفاعة لا تكون عند الله إلا بإذن الله للشافع ، ورضا الله سبحانه وتعالى عن المشفوع له ، وربنا جل وعز لا يرضى إلا عن أهل التوحيد ، ولهذا قال نبينا عليه الصلاة والسلام لأبي هريرة لما سأله : «من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟» قال : ((من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه)) ، وقال عليه الصلاة والسلام في الحديث الآخر : ((لكل نبي دعوة مستجابة، وإني ادخرت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، وإنها نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئاً)) .

فهذا السياق تأمله في سورة سبأ ينفعك الله عز وجل به في باب تقرير التوحيد ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ ؛ قال بعض العلماء : «هذه الآية قطعت شجرة الشرك من أصولها واجتثتها من عروقها، لأنها لم تُبقِ لمشرك متعلّق» ، كل ما يخطر ببال المشرك أنه يتمسك به أبطل في هذه الآية إبطالاً مرتباً ؛ لا مالكاً ، ولا شريكاً للمالك ، ولا عويناً للمالك ، ولا يملك شفاعة عند المالك ؛ إذاً عبادة كل من يُدعى من دون الله باطلة، هي من أبطل الباطل وأشد الضلال وأشنعه ولا يستفيد منها صاحبها إلا الخسران ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا

يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ [الرعد:١٤] ؛ هذه نتيجة من يلتجئ إلى غير الله ويدعو غير الله ويصرف أنواع العبادة لغير الله تبارك وتعالى .

بعد ذلك قال المصنف رحمه الله : ((**وتفسيرُها الذي يوضِّحُها قولُه تعالى**)) هذا كلام عظيم . الآن المصنف يفسر «لا إله إلا الله» بماذا ؟ بالقرآن ، وذكر هنا آيتين من القرآن الكريم فيهما تفسير «لا إله إلا الله» ، ولهذا انتبه لتفسير «لا إله إلا الله» ولمعناها في ضوء الآيتين اللتين ساقهما لك المصنف رحمه الله .

ومثل هذا الصنيع صنع في كتابه المبارك كتاب التوحيد؛ قال : «بابٌ تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله» ماذا في هذا الباب ؟ « بابٌ تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله» هذا الباب مكون من أربع آيات وحديث واحد . وبهذا تدرك متانة علم هذا الرجل وإمامته ونصحه ، ف «لا إله إلا الله» تفسيرها الذي يوضحها آيات يتلوها عليك من القرآن الكريم .

قال : ((**وتفسيرُها الذي يوضِّحُها قولُه تعالى** : ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾)) هذا فيه تفسير «لا إله إلا الله» ؛ لأن «لا إله إلا الله» ذكرت هنا بالمعنى .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ ؛ «لا» قلنا هي «لا التبرئة والبراءة » ، ولهذا بدل أن يقول : «لا إله» أتى بمعناها وهو البراءة قال : ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ، هذا في الدلالة مثل دلالة «لا إله»، لأن « لا إله » فيها إعلان البراءة ، «إلا الله» فيها إثبات التوحيد والإخلاص لله جل وعلا .

قال : ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ أي متبرئ من كل ما يُعبد سوى الله ، ولهذا استثنى الله جل وعلا قال : ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ استثنى ومع الاستثناء ذكر برهاناً للتوحيد قال : ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ أي إلا الذي تفرد بإيجادي من العدم وخلقي بعد أن لم أكن ؛ هذا وحده الذي له عبادتي ومن سواه أبرأ منه ، لا يستحق من العبادة ولا شيء لا قليل ولا كثير .

﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ ؛ أي إلا الذي فطرني فإنني أخلص العبادة له وأفرده بالعبادة وأوحده ولا أجعل معه شريكاً .

﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً ﴾ ما هي ؟ «لا إله إلا الله» التي ذُكرت في الآية بالمعنى .

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ أي جعل كلمة «لا إله إلا الله» باقيةً في نسله وذريته لتكون معتصماً ومفزعاً يفزعون إليها ويعتصمون بها ويحافظون عليها ، وهي لمن وفقه الله سبحانه وتعالى وهداه من ذريته ، قال : ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ .

ثم ذكر رحمه الله الآية الثانية قال : ((**وقولُه تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**)) هذه أيضاً الآية توضح معنى «لا إله إلا الله» .

قوله : ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ ما هي الكلمة السواء المقصودة هنا والمعنية في هذا المقام ؟ وهي كلمة العدل والإنصاف ، كلمة الحق ، كلمة الهدى ؛ ما هي ؟ «لا إله إلا الله» ؛ ﴿تَعَالَوْا﴾ يعني نادي أهل الكتاب اليهود والنصارى إلى كلمة عدل، كلمة حق، كلمة هدى وهي « لا إله إلا الله ».

﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي كلمة عدلٍ لا نختلف عليها ، اتفق عليها جميع الأنبياء من أولهم إلى آخرهم ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] ، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥] ؛ فهي كلمة متفق عليها بين جميع الأنبياء ، فيقول الله جل وعلا لنبيه نادي هؤلاء اليهود والنصارى وقل لهم : تعالوا نجتمع على كلمة سواء كلمة عدل متفق عليها بين جميع الأنبياء لا خلاف بينهم فيها ؛ وهي كلمة «لا إله إلا الله» .

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ لو قال لك قائل : ما معنى «لا إله إلا الله» ؟ وقلت : معنى «لا إله إلا الله» : (أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا) قرأت هذا الجزء من الآية ؛ ماذا يكون هذا التفسير ؟ تفسير جامع ، ولهذا الشيخ يقول : ((وتفسيرها : قولُه تعالى)) ، فلو قيل لك : ما معنى « لا إله إلا الله » ؟ وقلت : « لا إله إلا الله » معناها وقرأت الآية ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ الجواب تفسير جامع مانع لا مزيد عليه ، نفي وإثبات ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ . ولهذا لاحظ أنت تعيش مع « لا إله إلا الله » وتفسر «لا إله إلا الله» بالقرآن وبالسنة ؛ حافظ على هذا التفسير ، وإذا جاءتك تفسيرات من هنا أو من هناك دعك من تفسيرات الناس وعليك بهذا التفسير الذي في كتاب ربك وفي سنة نبيك صلوات الله وسلامه عليه .

فإذا قيل لك : ما معنى « لا إله إلا الله » ؟ اقرأ القرآن لا تزد على ذلك ، اقرأ كلام الله . إذا قيل لك : ما معنى « لا إله إلا الله » ؟ قل : ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ قف عند هذا ؛ هذا جواب وافٍ وبيان شافٍ جامع لمعنى « لا إله إلا الله » ، ف «لا إله إلا الله» معناها : أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا .

﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ أي لا نصرف شيئاً من العبادة إلا لله ؛ الدعاء الذبح النذر الاستغاثة الخوف الرجاء ، نحن مر معنا قريباً عند المصنف الأدلة على أن هذه عبادات ، ف«لا إله إلا الله» معناها : أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا . أرأيتم لو أن شخصاً — أعيد هذا المعنى - أرأيتم لو أن شخصاً قال : «لا إله إلا الله» ودعا غير الله ، استغاث بغير الله ، ذبح لغير الله ، نذر لغير الله أهو من أهل «لا إله إلا الله» ؟ لا ، لأن «لا إله إلا الله» معناها: ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ أي لا نجعل معه شريكاً في شيء من العبادة .

﴿ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ «شَيْئًا» نكرة في سياق النفي فتفيد العموم .

هاتان الآيتان في تفسير «لا إله إلا الله» لكن القرآن فيه آيات كثيرة جداً تفسر «لا إله إلا الله» ، والمؤلف رحمه الله ذكر في كتابه التوحيد قدراً طيباً من هذه الآيات ؛ فمن الآيات المفسرة ل «لا إله إلا الله»: قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء:٣٦]، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة:٥]، وقوله تعالى : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣] ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الزمر:٣] وغيرها من الآيات الكريمات المفسرة والمبينة والموضحة لكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» .

قال : ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي لا يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله تبارك وتعالى ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ «مِنْ دُونِ اللَّهِ» هذا يشمل ماذا ؟ يشمل كل أحد؛ فالطاعة لله تبارك وتعالى، والعبادة والذل والخضوع والانكسار حقٌ لله لا شركة لأحدٍ فيه لا في قليل ولا في كثير

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ يعني امتنعوا وتولوا وأدبروا ولم يقبلوا ، إن لم يقبلوا منك ذلك ﴿ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ؛ ﴿ فَقُولُوا ﴾ أي أنت وأمتك -أمة مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام- قولوا لهؤلاء : {اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} أي مخلصون لله تبارك وتعالى التوحيد ، لا نجعل معه الشركاء والأنداد ؛ تعالى وتنزه عن ذلك .

إلى هنا يكون المصنف رحمه الله أنهى الكلام على « لا إله إلا الله » ذاكراً فضل هذه الكلمة ، وذاكراً أيضاً معنى هذه الكلمة ومدلولها وما تدل عليه من وجوب إخلاص الدين لله تبارك وتعالى والبراءة من الشرك .

صلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبينا مُحَمَّد وآله وصحبه أجمعين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدرس الثاني عشر

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ، أما بعد :

قال شيخ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

ودليلُ شهادةِ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ قولهُ تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة:١٢٨]. **ومعنى شهادةِ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ: طاعتُهُ فيما أَمَرَ، وتصديقُهُ فيما أَخْبَرَ، واجتنابُ ما عنْهُ نهى وزجَرَ، وأنْ لا يُعبدَ اللهُ إلاَّ بما شَرَعَ. ودليلُ الصلاةِ، والزكاةِ، وتفسيرُ التّوحيدِ قولُه تعالى:**﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[البينة:٥]. **ودليلُ الصيامِ قولُه تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:١٨٣]. **ودليلُ الحجِّ قولُه تعالى:** ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[آل عمران:٩٧] .

****

فهنا يتكلم ويبين المصنف رحمه الله تعالى ما يتعلق بشهادة أن مُحَمَّداً رسول الله ﷺ . وشهادة أن مُحَمَّداً رسول الله ﷺ هي قرينٌ لشهادة أن لا إله إلا الله ، فالله عز وجل لا يقبل من العباد «لا إله إلا الله» إلا مقرونًا بها «مُحَمَّد رسول الله» ﷺ ، فهي قرينة كلمة التوحيد . والله عز وجل في مواضع كثيرة من القرآن الكريم قرن بين محبة الله ومحبته عليه الصلاة والسلام، وطاعة الله وطاعته، ومعصية الله جل وعلا ومعصيته ، وقرن الشهادة بأن مُحَمَّداً رسول الله ﷺ بالشهادة أن لا إله إلا الله .

و«لا إله إلا الله» دالة على الوحدانية ؛ إفراد الله جل وعلا بالتوحيد ، و«مُحَمَّداً رسول الله» ﷺ دالة على تجريده ﷺ بالطاعة ؛ فالعبادة لله جل وعلا ،ولا يُعبد الله جل وعلا إلا بما شرع وجاء عن رسوله صلوات الله وسلامه عليه ؛ ولهذا فإن الدين كله قائم على الشهادتين ، وشهادة أن لا إله إلا الله تدل على الإخلاص ، وشهادة أن مُحَمَّداً رسول الله ﷺ تدل على الاتباع ، والله جل وعلا لا يقبل الأعمال إلا إذا كانت خالصة لوجهه موافقة لهدي نبيه ﷺ ؛ فمن جاء بالإخلاص دون المتابعة أو بالمتابعة دون الإخلاص لم يقبل الله تبارك وتعالى منه عمله ولم يقبل منه تعالى طاعته . فالدين كله قائم على الشهادتين؛ شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن مُحَمَّداً رسول الله ، ولهذا بدأ النبي ﷺ بالشهادتين عندما ذكر مباني الإسلام، قال : ((بني

الإسلام على خمس ؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن مُحَّداً رسول الله)) ، وكذلك في حديث جبريل قال : «أخبرني عن الإسلام؟» قال : ((الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحَّداً رسول الله)). فالشهادة للنبي عليه الصلاة والسلام بالرسالة هي قرين للشهادة لله تبارك وتعالى بالوحدانية .

ولهذا بعض أهل العلم بهذا الاعتبار وبهذا الملحظ قال : التوحيد نوعان: توحيد المرسِل وتوحيد المرسَل ؛ توحيد المرسِل وهو الله بأن يفرد جل وعلا بالعبادة وأن يُخلص الدين له ، وتوحيد المرسَل وهو النبي عليه الصلاة والسلام بأن لا يُعبد الله جل وعلا إلا بما جاء عنه عليه الصلاة والسلام ؛ فيكون مدلول الشهادتين : أن لا يُعبد إلا الله ، وأن لا يعبد الله جل وعلا إلا بما شرع وجاء عن النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((**ودليلُ شهادةِ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ ﷺ**)) ؛ مُحَّد ﷺ هو النبي الكريم الذي ختم الله جل وعلا به النبوات فلا نبي بعده : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:٤٠] ، وجاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((لا نبي بعدي)) ؛ فبه خُتمت النبوات والرسالات فلا نبي بعده عليه الصلاة والسلام ولا رسول . وهو ﷺ سيد الأولين والآخرين، سيد ولد آدم أجمعين كما قال ﷺ : ((أنا سيد ولد آدم ولا فخر)) . وهو عليه الصلاة والسلام أولى بكل مؤمن من نفسه كما قال جل وعلا : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦] ومعنى ذلك : أن تكون محبته مقدمة على محبة النفس وأن تكون طاعته عليه الصلاة والسلام مقدمة على طاعة النفس ، لأنه أولى بنفسك منك ، وأحرص على نفسك منك ؛ فوجب عليك أن تحبه محبةً مقدمةً على محبتك لنفسك ، وأن تطيعه طاعةً مقدمة على طاعتك لنفسك ، قال عليه الصلاة والسلام : ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)) ، وقال لعمر : ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه)) ؛ ولهذا وجب على كل مسلم أن يقدم محبة النبي عليه الصلاة والسلام على محبته لنفسه ، والله جل وعلا قرن محبة النبي ﷺ بمحبته ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ [التوبة:٢٤] ، في الحديث قال عليه الصلاة والسلام : ((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ؛ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما)) .

والشهادة له عليه الصلاة والسلام بأنه رسول الله يأتي تقريرها وبيان معناها عند المصنف رحمه الله تعالى.

بدأ بذكر الدليل قال : ((**ودليلُ شهادةِ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ قولهُ تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾**))؛ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ أي أُرسل إليكم وبُعث إليكم رسول وهو محمد ﷺ ﴿مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي منكم تعرفونه ليس من الملائكة ولا من الجن بل هو بشر مثلكم تعرفون نسبه وتعرفون حسبه وتعرفون خُلقه وأدبه عليه الصلاة والسلام . ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ فهو عليه الصلاة والسلام رسول من البشر لا من الملائكة ولا من الجن ، من البشر نشأ بين الناس وعاش مثل الناس يأكل الطعام مثلهم ويشرب الشراب مثلهم لكن الله سبحانه وتعالى شرَّفه على البشر بتتميم مقام العبودية وشرَّفه على البشر بأن اصطفاه واجتباه وجعله نبياً رسولاً وجعله سيد ولد آدم أجمعين؛ ولهذا قال الله في القرآن ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف:١١٠] ، فهو عليه الصلاة والسلام بشر مثله مثل البشر له أم وله أب وحاله كحال البشر لكنه يوحى إليه ، يأتيه الوحي من رب العالمين ، بعثه الله عز وجل وأرسله وجعله سراجاً منيراً وداعياً إلى الله بإذنه وجعله بشيراً ونذيراً .

قال : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ ؛ أي من صفته ونعته صلوات الله وسلامه عليه أنه يشق عليه الأمر الذي فيه مشقة عليكم وعنت ، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي يشق عليه صلوات الله وسلامه عليه كل أمر فيه عنت على الناس ، ولهذا كان دينه عليه الصلاة والسلام دين السماحة واليسر ، قال عليه الصلاة والسلام : ((بعثتُ بالحنيفية السمحة)) ، وقال عليه الصلاة والسلام : ((إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه)) ، وكان عليه الصلاة والسلام رفيقاً حليماً متواضعاً ليناً ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩] .

قال : ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي حريص على هدايتكم وعلى ما فيه سعادتكم ونجاتكم من النار ومن سخط الجبار –عليه الصلاة والسلام– ، وجاهد عليه الصلاة والسلام في الله حق جهاده نصحاً للعباد ورحمة بالخلق ودعوةً إلى الله عز وجل واجتهاداً في إنقاذهم من النار ومن سخط الله جل وعلا ، يقابل إساءة من أساء إليه بالصفح وعدوان من اعتدى عليه بالعفو ، ويلين الجانب ويخفض الجناح ، ويناصح الناس حرصاً عليه الصلاة والسلام عليهم . ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي على صلاحكم وهدايتكم واستقامتكم ونجاتكم من النار وسخط الجبار جل وعلا .

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي من صفته عليه الصلاة والسلام أنه صاحب رأفة ورحمة بعباد الله المؤمنين .

لما ذكر المصنف رحمه الله تعالى الدليل بيّن معنى الشهادة ، وينبغي هنا أن يُعلم أن شهادة أن مُحَّداً رسول الله ﷺ ليست نافعةً لقائلها إلا إذا عرف معناها وحقق مقتضاها ؛ فبذلك يكون من أهلها ، نظير ما سبق معنا في شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنها لا تنفع صاحبها إلا إذا عرف مدلولها وحقق ما تقتضيه من الإخلاص لله جل وعلا والتوحيد والبراءة من الشرك ، وكذلك الشأن في شهادة أن مُحَّداً رسول الله ﷺ ؛ لابد من فهم ما دلت عليه من وجوب طاعته ، ولزوم ما جاء به ، وتصديق أخباره ، والبعد عن كل ما نهى عنه عليه الصلاة والسلام ، وأن لا يُعبد الله جل وعلا إلا بما جاء عنه ﷺ .

فلابد من فهم معنى الشهادة أما أن يكون الإنسان ينطقها نطقاً مجرداً دون فهم ولا عمل لا يكون بذلك من أهلها ، لابد من فهم معناها ولابد من تحقيق مقتضاها ، قال الله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء:٦٤] الرسل بُعثوا ليطاعوا ، لم يبعثوا فقط ليقال هم رسل وتنتهي القضية عند هذا الحد ، أو نحن نصدق بأنه رسول ، وكم من كافر آمن بأن النبي ﷺ مرسَل من الله وصدَّق أنه مرسل لكن لم يجب دعوته إما كبراً أو عناداً أو غير ذلك من الأغراض ، فقد يدرك الإنسان أنه رسول عليه الصلاة والسلام مرسَلٌ حقاً من ربه جل وعلا لكن قد يمتنع من الاستجابة ، وقد يعلم أن دينه دين حق ولا يستجيب ؛ مثل ما قال عمه : ولقد علمتُ بأن دين مُحَّد من خير أديان البرية دينا

إذاً طالما أنك علمت لماذا لا تعلن إسلامك واستجابتك وتقبل هذا الدين الذي جاء به؟ يجيب قائلاً مبيناً المانع :

لولا الملامة أو حذار مسبة لرأيتني سمحاً بذلك مبيناً

يقول أنا أعرف أن دينه دين حق وأنه رسول من عند الله لكن أخشى الملامة وأخشى سبة قريش لي وأخشى أن يتكلم الناس فيّ ؛ هذا الذي منعه ، وجلس النبي عليه الصلاة والسلام عند رأسه عندما حضرته الوفاة يقول له : ((يا عم قل «لا إله إلا الله» كلمة أحاج لك بها عند الله)) ، ومات وهو يقول هو على دين عبد المطلب ، وحزن النبي عليه الصلاة والسلام وأنزل الله تسليةً له : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦] . الشاهد أن في شهادة أن مُحَّداً رسول الله ﷺ لابد من الفهم لمعنى هذه الشهادة ، ولابد أيضاً من تحقيق ما دلت عليه.

قال رحمه الله : ((**ومعنى شهادةِ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ ﷺ: طاعتُهُ فيما أَمَرَ، وتصديقُهُ فيما أَخْبَرَ، واجتنابُ ما عنْهُ نهى وزَجَرَ، وأنْ لا يُعبدَ اللهُ إلاَّ بما شَرَعَ**)) ؛ عَدّها بيدك أربعة هذه معنى شهادة أن مُحَّداً رسول الله ﷺ ، ولابد من هذه الأربعة مجتمعة ، لابد أن يحققها العبد ليكون فعلاً صادقاً بالشهادة وليكون فعلاً من أهل الشهادة بأن مُحَّداً رسول الله ﷺ .

- ❖ الأمر الأول : ((**طاعته فيما أمر**))؛ أمر عليه الصلاة والسلام بأوامر كثيرة ، وهذه الأوامر جاءت في القرآن وجاءت في السنة ، وأعظم شيء أمر به عليه الصلاة والسلام التوحيد ، وأعظم شيء نهى عنه الشرك بالله ، وأمر بالصلاة ، وأمر بالصيام ، وأمر بالحج ، أمر بالزكاة ، أمر ببر الوالدين إلى غير ذلك من الأوامر التي جاءت عنه وجاء بها عليه الصلاة والسلام في كتاب الله وسنته صلوات الله وسلامه عليه؛ فلابد من طاعته ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[الحشر:٧] ((ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)) ، (صلي قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب)) يجب أن يطاع عليه الصلاة والسلام فيما يأمر به على قدر الاستطاعة : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة:٢٨٦] . قال : ((**طاعتُهُ فيما أَمَرَ**)) هذا الأمر الأول .
- ❖ الأمر الثاني : ((**تصديقُهُ فيما أَخْبَرَ**)) أخبر بأمور كثيرة ؛ أخبر أولاً عن الله ، وذكر أسماء حسنى لله ، وذكر صفات عظيمة لله ، وذكر أفعالاً جليلة لله تبارك وتعالى ، ذكر الملائكة وذكر أسماء لهم وأخبار وأوصاف وأعمال ووظائف ، ذكر اليوم الآخر والجنة والنار وما يكون في الدار الآخرة وما يكون في القبر ، ذكر أمور كثيرة عليه الصلاة والسلام أخبر بها ، ذكر أخباراً عن الأولين وذكر أخباراً عن الآخرين وذكر أموراً بين يدي الساعة ، أشياء كثيرة عليه الصلاة والسلام ذكرها ؛ فلا يكون مؤمناً به إلا من يصدِّقه ﷺ في كل ما يخبر به .

روى عليه الصلاة والسلام للصحابة حديثاً قال : ((إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فيؤمر بكتب أربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ..)) إلى آخر الحديث ، هذا خبر صح وثبت عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، ابن مسعود ﷺ لما روى الحديث ماذا قال ؟ قال : «حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق» فهو عليه الصلاة والسلام صادق مصدوق لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، فكل ما يخبر به وحي من الله ؛ فيجب على من شهد أنه ﷺ رسول الله أن يصدقه في كل ما يخبر به ، وأن لا يتردد في شيء من ذلك ، وألا يشك في شيء من أخباره ، بل كل ما يخبر به عليه الصلاة والسلام يُتلقى باليقين والإيمان والجزم والتصديق ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾[الحجرات:١٥] ، فإذا

وجد لدى الإنسان شيء من الريب أو الشك فيما يخبر به النبي عليه الصلاة والسلام خرج بذلك من شهادة أن مُحَمَّداً رسول الله ، لأن من مقتضيات هذه الشهادة أن يصدِّق النبي عليه الصلاة والسلام في أخباره وأن لا يكذبه في شيء منها ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾[الزمر:٣٣] فيصدِّقه عليه الصلاة والسلام . هذا الأمر الثاني .

❖ الأمر الثالث : قال ((**واجتنابُ ما عنْهُ نَهى وزَجَرَ**)) ؛ اجتناب: أي البُعد والحذر مما نهى عنه وبَيَّن حرمته وذكر عقوبته والوعيد عليه ؛ فيجب على من آمن بأنه رسول من عند الله أن يجتنب ما نهى عنه صلوات الله وسلامه عليه ، قال جل وعلا : ﴿وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾[الحشر:٧] ، وفي الحديث قال عليه الصلاة والسلام : ((ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فانتهوا)) ولم يقل "ما استطعتم" لماذا ؟ في الأمر قال : «ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم» ،وفي النهي قال : «وما نهيتكم عنه فانتهوا» ولم يقل "ما استطعتم" لماذا ؟ لأن النهي ترك ، والترك مستطاع ، لأن الأمر يحتاج إلى فعل والفعل قد يكون فيه استطاعة عليه وقد يكون ليس هناك استطاعة عليه ، مثل لو كان هناك صخرة وقيل للإنسان : احملها ، لابد أن يقال : إن استطعت ، لأنه إن لم يكن عنده استطاعة على حملها لم يقم بحملها ، لكن لو قيل له : لا تحملها هل يقال : إن استطعت؟ لأن النهي ترك والترك مستطاع ، ولهذا قال : ((ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)) ، ولهذا قال في الحديث : ((صلي قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب)) ، وفي الحج قال : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ ﴾[آل عمران:٩٧] الحج فريضة لا تجب في العمر كله إلا مرة واحدة ولا تجب إلا على المستطيع ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ ، والنهي قال : ((وما نهيتكم عنه فانتهوا)) .

ولهذا يجب على من شهد أنه رسول الله ﷺ أن يتعرف على الأمور التي نهى عنها ليجتنبها ، وإذا لم يتعرف عليها كيف يجتنبها ؟ كما قال من قال : «كيف يتقي من لا يدري ما يتقي!» ، ولهذا كما أننا مطالبون بمعرفة الأوامر لنفعلها فإننا كذلك مطالبون بمعرفة النواهي لنجتنبها ، ولهذا ألف جماعة كبيرة من أهل العلم كتب في النواهي ، كتب في المحرمات ،كتب في الكبائر لماذا ؟ لتجتنب ، كتب في البدع ؛ من أجل أن يعرفها الناس ليجتنبوها ، ومن لا يعرف الشر ربما وقع فيه ، ولهذا كما أن المسلم مطالب بمعرفة الحق ليفعله ويكون من أهله فإنه أيضاً مطالب بمعرفة النواهي والمحرمات ليجتنبها وليتقيها وليبتعد عنها وليتوب إلى الله جل وعلا إن وقع في شيء منها ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[النور:٣١].

❖ والأمر الرابع : ((**وأنْ لا يُعبدَ اللهُ إلاَّ بما شَرَعَ**)) أي لا بالأهواء والبدع ، لا يعبد الله بالأهواء ، ولا يعبد الله بالبدع ، ليست العبادة كلٌ يركب رأسه ويعبد بما شاء ، لا يعبد الله إلا بما شرع . الأهواء والبدع لا تقرب من الله بل تُرد على صاحبها ، قال عليه الصلاة والسلام : ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)) ، وقال عليه الصلاة والسلام : ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)) أي مردود على صاحبه وغير مقبول منه .

ولهذا الطرق إلى الله جل وعلا كلها مسدودة إلا طريق واحد ، الطرق التي يُدَّعى أنها توصل إلى الله جل وعلا كلها مسدودة ، لا يوصل إلى الله جل وعلا إلا طريق واحد ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[الأنعام:١٥٣] ، خط عليه الصلاة والسلام خطاً مستقيماً وخط على جنبتيه خطوط وقال : ((هذا صراط الله المستقيم ، وقال هذه سبل؛ وعلى رأس كل سبيل منها شيطان يدعو إليه)) ، فالسبل كثيرة وكلها توصل إلى النار وإلى سخط الجبار ، وأما الطريق إلى الله سبحانه وتعالى فهو طريق واحد وهو طريق النبي مُحَمَّد ﷺ ، لا يقبل الله عز وجل ديناً سوى الدين الذي جاء عنه ، قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[آل عمران:٨٥] ، وقال تعالى : ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[المائدة:٣] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[آل عمران:١٩] ، فالدين الذي يرضاه الله ويقبله من العباد ولا يرضى ديناً سواه هو الدين الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام .

ولهذا من مقتضيات الشهادة ولوازمها ألا يُعبد الله إلا بما شرع ؛ أي بما جاء عن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، أما أن يخترع الإنسان أعمالاً أو تخترع له أعمال ثم ينشغل بها فهي لا تقربه من الله ، ولهذا الطرق المحدثة التي أحدثها الناس وأنشأوها وزعموا أنها توصل السائرين فيها إلى الله هي في الحقيقة لا توصلهم إلى الله ، لا يوصل إلى الله تبارك وتعالى إلا طريق مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام ؛ فمن أراد لنفسه النجاة والفوز ونيل رضا الله تبارك وتعالى فليلزم نهج النبي الكريم عليه الصلاة والسلام وليتمسك بهديه وليعتصم بسنته وليهتدي بهداه ؛ ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يؤكد على هذا المعنى كثيراً ، وكان في كل مرة يخطب الناس يوم الجمعة يقول : ((أما بعد؛ فإن أصدق الحديث كلام الله ، وخير الهدى هدى مُحَمَّد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة)) ، يحذِّر من الضلالات والبدع ولأهواء التي تحرف الناس عن الجادة السوية وعن صراط الله المستقيم . قال : ((وأنْ لا يُعبدَ اللهُ إلاَّ بما شَرَعَ)) .

فهذه أمور أربعة ؛ من شهد أن مُحَمَّداً ﷺ رسول الله لن يكون من أهل هذه الشهادة حقاً وصدقاً إلا إذا كان من أهل هذه الأمور الأربعة . وإذا تأملت في هذه الأمور التي ذكر رحمه الله ، وتأملت في الشيء

الذي جاء به ﷺ وهو مرسل من الله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ [التوبة:١٢٨] ، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ [آل عمران:١٦٤] فهو مُرسَل مبعوث ، ما خلاصة ما بُعث به عليه الصلاة والسلام ؟ لو تتأمل في جميع ما جاء عنه ﷺ تجده يتلخص في أمور ثلاثة : أوامر ، ونواهي، وأخبار. فإذا قال الإنسان : أشهد أن محمداً رسول الله ؛ فليعلم أنه جاء بأوامر ، وجاء بنواهي ، وجاء بأخبار . فالأوامر تُفعل ، والأخبار تُصدق ، والنواهي يُنتهى عنها وتجتنب . ومن أراد أن يعبد الله ويتقرب إليه فليكن تقربه إلى الله بما جاء عن النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

ولهذا هذا التعريف للشهادة هو أجمع تعريف ، ويُنصح كل مسلم أن يحفظ هذا التعريف ، ليس فقط يحفظه بل يحافظ عليه ؛ يحفظه ويحافظ عليه ويجتهد حياته بأن يحقق ذلك ؛ قال : ((طاعتُهُ فيما أَمَرَ، وتصديقُهُ فيما أَخْبَرَ، واجتنابُ ما عنْهُ نهى وزَجَرَ، وأنْ لا يُعبدَ اللهُ إلاَّ بما شَرَعَ)).

ثم بعد ذلك انتقل رحمه الله تعالى للكلام على الركنين الآخرين من أركان الإسلام وهما الصلاة والزكاة فقال : **((ودليلُ الصلاةِ، والزكاةِ، وتفسيرُ التَّوحيدِ))** ؛ لما كان الدليل الذي ساقه دليلاً للصلاة والزكاة ومشتملاً على تفسير للتوحيد نبه على ذلك، مع أنه سبق أن أشار رحمه الله إلى بعض الآيات التي اشتملت على تفسير التوحيد، أشار إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧] ، وقوله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران:٦٤] ؛ فهذه آية ثالثة تفسر التوحيد إضافةً إلى دلالتها على ركنين من أركان الإسلام وهما الصلاة والزكاة .

قال : ((**ودليلُ الصلاةِ، والزكاةِ، وتفسيرُ التَّوحيدِ قولُه تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾**)) ؛ قوله تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي ما أمر الله جل وعلا الكفار والمشركين إلا بإخلاص الدين لله وإفراده بالعبادة ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أمر المشركين بذلك . ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ هذه الكلمة هي مدلول «لا إله إلا الله» وفيها تفسير لـ «لا إله إلا الله» ، لأن «لا إله إلا الله» معناها : أن لا نعبد إلا الله مخلصين له الدين . وبالأمس وقفنا على هذا المعنى في التهليل الذي يقوله المسلم دبر كل صلاة «لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه» ثم بعدها قال: «لا إله إلا الله مخلصين له الدين» . فـ «لا إله إلا الله» هي أن نعبد الله مخلصين له الدين حنفاء ، هذا هو معنى «لا إله إلا الله»: ألا نعبد إلا الله مخلصين له الدين.

قال تعالى : ﴿ومَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي ما أمروا إلا بأن تكون عبادتهم لله خالصة؛ أي صافيةً نقيةً لا يراد بها إلا الله ، لا يُجعل مع الله تبارك وتعالى شريك في شيء منها .

وقوله : ﴿حُنَفَاءَ﴾ الحنيف عرفنا معناه سابقاً وهو: المائل . وإبراهيم عليه الصلاة والسلام إمام الحنفاء ، والحنيفية ملة إبراهيم؛ وهي أن نعبد الله مخلصين له الدين . فقوله ﴿حُنَفَاءَ﴾ أي: مائلين عن الشرك وعن الضلال والباطل إلى التوحيد والإخلاص وحسن الإقبال على الله تبارك وتعالى .

﴿وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ أُمروا إضافةً إلى التوحيد بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة داخل تحت قوله : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أليس كذلك ؟ لأن الصلاة عبادة والزكاة عبادة فهما داخلان تحت قوله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ، ومع ذلك ذُكرا وخُصا بالذكر تعظيماً لشأن هاتين العبادتين ، وهما أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين ، قال عليه الصلاة والسلام : ((بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة)) . وإيتاء الزكاة قرينٌ لإقام الصلاة في كتاب الله ، ففي الغالب كلما يُذكر في القرآن إقام الصلاة يذكر معه إيتاء الزكاة ، فهي قرينة الصلاة في كتاب الله جل وعلا ، فتخصيص الصلاة والزكاة بالذكر هنا مع أنهما داخلتان في عبادة الله اهتماماً بهاتين العبادتين اللتين هما أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين .

قال : ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ أمر بإقامة الصلاة ، لم يقل "يصلُّوا"! قال: «وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ» ، وإقامة الصلاة يتناول المحافظة على شروطها وأركانها وواجباتها كل ذلكم من إقام الصلاة المحافظة على أوقاتها . ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ أي يأتوا بالصلاة محافظين عليها مؤدين لها مواظبين على ذلك ، مؤدين لشروطها وأركانها وضوابطها في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وقد صح عنه في الحديث أنه قال : ((صلوا كما رأيتموني أصلي)) .

والمراد بالصلاة هنا: الصلاة المفروضة وهي خمس صلوات افترضها الله سبحانه وتعالى على عباده في اليوم والليلة؛ الفجر : ركعتان ، والظهر أربع ، والعصر : أربع ، والمغرب : ثلاث ، والعشاء : أربع ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨] فالله جل وعلا افترض على عباده وكتب عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة ، وهذه فريضة مكتوبة على العباد ، وهي أعظم فرائض الإسلام بعد الشهادتين .

ولهذا ينبغي أن تنتبه؛ أعظم شيء تتقرب إلى الله سبحانه وتعالى به بعد التوحيد: الصلوات الخمس المكتوبة؛ تقيمها محافظاً على أوقاتها على أركانها على شروطها ، وهذه الصلاة جُعلت محكًّا وميزاناً ، من حافظ عليها كانت عوناً له على المحافظة على غيرها من الطاعات ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع ، ولا حظ في الإسلام لمن ضيَّع الصلاة ، ولهذا قال بعض العلماء المتقدمين : «إذا أردت أن تعرف قدر الإسلام عندك فانظر إلى قدر الصلاة عندك» ؛ ميزان الصلاة ، إذا أردت أن تنظر إلى قدر الإسلام ومكانة الإسلام عندك فانظر إلى مكانة الصلاة هل أنت من أهلها ؟ هل أنت من المحافظين عليها ؟ هل أنت من المواظبين عليها ؟ من ضيع الصلاة فهو لما سواها أضيع . قال عليه الصلاة والسلام كما في المسند عندما ذُكرت عنده الصلاة قال : ((من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة يوم القيامة ، وحشر مع قارون وفرعون وهامان وأمية بن خلف)) ؛ يعني يحشر مع صناديد الكفر وأئمة الباطل .

فالصلاة محك وميزان ، وهي صلة بين العبد وبين الله تبارك وتعالى ، وهي خمس صلوات في اليوم والليلة لا تأخذ من الإنسان وقتاً طويلاً لكنها بركة على الإنسان في حياته وفي يومه ، اقرأ بركة الصلاة في الأحاديث عن النبي عليه الصلاة والسلام ، واقرأ أيضاً خطورة التهاون في الصلاة وتركها : ((العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر)) ؛ فالصلاة محك وميزان .

وإذا نظرت إلى واقع كثير من الناس تجده يُغلب على الصلاة ، والأمور التي تغلب على الصلاة كثيرة جداً ، والنبي عليه الصلاة والسلام حذَّر من أن يغلب الإنسان على صلاته قال : ((إن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا)) في حديث الرؤية ، فالإنسان يُغلب على صلاته ؛ ولهذا ينبغي على الإنسان أن يتقي الله جل وعلا في هذه الصلاة وأن يحرص أن يكون من أهلها ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة:٤٣] يحافظ عليها في المساجد حيث ينادى بهن مع جماعة المسلمين كما أمره الله ، محافظاً على الشروط على الأركان على الواجبات ، لا يضيع هذه الصلاة ، يجتهد أن يكون في الصلاة من أولها من تكبيرة الإحرام ، لا يُغلب على صلاته ، لا يغلب على هذه الفريضة ، أعظم ما تتقرب إلى الله به الصلاة بعد التوحيد ، إذا ضاعت الصلاة ما سواها يضيع، وإذا حوفظ على الصلوات أعانته﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥] .

فلهذا ينبغي على المسلم أن يعظم الصلاة وأن يكون لها في قلبه مكانة ومنزلة ، وإذا نودي للصلاة يجيب النداء ؛ «حي على الصلاة حي على الفلاح» يجيب النداء ولا يرده عن الصلاة أي شيء ، والآن كثير من الناس يغلب على صلاته! بعض الناس يغلبه على صلاته فنجان الشاي ، يكون أمامه الشاي ويشرب

والصلاة ينادى لها وتقام ويصلي المسلمون في المساجد وهو مغلوب محروم . وهناك من يغلبه على الصلاة المحرمات؛ يغشى المحرمات ويفعل المعاصي والآثام وينادى للصلاة فلا يجيب ، والذين يدخلون النار يوم القيامة –نار جهنم– يسألون : لمَ ؟ ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[المدثر:٤٣] .

فالشاهد أن الصلاة فريضة من فرائض الإسلام ، وهي أعظم فرائض الإسلام بعد الشهادتين ، ويجب على المسلم أن يتقي الله جل وعلا في صلاته ، وأن يحافظ عليها في أوقاتها بشروطها وأركانها وواجباتها كما أمره الله وكما جاء عن رسوله صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي ويؤدوا الزكاة المفروضة ، والزكاة المفروضة هو جزء يسير جداً من شيء كثير أعطاك إياه الله وتفضل الله سبحانه وتعالى عليك به ، وهي مالٌ يؤخذ من الأغنياء وصدقة تؤخذ من الأغنياء وتُرد على الفقراء . لما بعث الرسول معاذاً إلى اليمن قال : ((إنك تأتي قوماً أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمَّداً رسول الله ، فإن هم أجابوك لذلك فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة ، فإن أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم)) ، فالزكاة هي جزء قليل وقدر يسير من المال افترضه الله سبحانه وتعالى على الأغنياء الذين بلغت أموالهم النصاب ، ويُخرج هذا الجزء طيبةً به نفوسهم بنفس طيبةٍ سمحة ويؤدى إلى الفقراء المحتاجين ، ويكون بركة للمال ، وبركة أيضاً في المزكي نفسه عليه وحياته زكاة له ، ولا ينقص من ماله «ما نقصت صدقة من مال» ؛ هذه الزكاة المفروضة .

قال : ﴿وَذَلِكَ﴾ أي الذي أمروا به في هذه الآية ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ﴾ الإشارة هنا إلى ما أمروا به هنا في هذه الآية ﴿دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أي الدين القويم المستقيم الواضح البين الموصل إلى رضوان الله تبارك وتعالى وجنات النعيم .

قال : ((**ودليلُ الصيامِ قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾**)) والصيام : هو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس في شهر رمضان المبارك . فشهر الصيام هو شهر رمضان ؛ افترض الله سبحانه وتعالى على العباد صيامه ، وهو شهرٌ يصام في كل سنة ، هذه عبادة مفروضة افترضها الله سبحانه وتعالى على عباده ؛ يصومون شهراً في السنة عن الطعام وعن الشراب وسائر المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس في كل يوم من أيام شهر رمضان المبارك.

قال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ أي فُرض عليكم الصيام وأوجب عليكم فريضة

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم﴾ وهذا فيه تنبيه أن من قبلنا أمروا بالصيام ، كان الصيام معروفاً في الأمم السابقة في الرسالات السابقة .

قال : ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وهذه ثمرة عظيمة للصيام؛ وهي أن الصائم يفوز وينال بصيامه تقوى الله ، فهو يثمر نيل تقوى الله جل وعلا ، يعين على كل خير ويحجز عن الرذائل والشرور كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((الصيام جُنة)) يستجن به من النار ، من سخط الله ، من المعاصي والآثام .

قال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لعلكم تفوزون بأدائكم لهذه الطاعة وقيامكم بهذه العبادة بالتقوى التي هي أساس كل خيرٍ وفلاحٍ وسعادةٍ في الدنيا والآخرة .

قال : ((**ودليلُ الحجِّ**)) وهو الركن الخامس من أركان الإسلام ، والحج: هو قصد مكة لأعمالٍ مخصوصة في أوقاتٍ مخصوصة ، وهو فريضةٌ على العباد في العمر كله مرةً واحدة . الصلاة في اليوم والليلة خمس صلوات ، والزكاة ليست على كل أحد وإنما من يبلغ ماله النصاب إذا حال عليه الحول ، والصيام في شهر رمضان في كل سنة شهرٌ واحد ، والحج في العمر كله مرة واحدة أيضاً في حق المستطيع ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾.

وبهذا تعلم أن الدين دين يسر ، لا عنت فيه ولا مشقة ، مثل ما مر معنا في الآية الكريمة ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة:١٢٨] ، بُعث بالحنيفية السمحة ، قال : ((إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه)).

فهذه فرائض عدها النبي ﷺ مرة لأحد الأعراب ؛ سأل النبي عليه الصلاة والسلام عن الفرائض فعدَّ عليه هذه الفرائض فأمسك الأعرابي بيده وقال : «لا أزيد عليها ولا أنقص»؛ يعني سأحافظ على هذه الفرائض ولا أزيد عليها ولا أنقص ، قال عليه الصلاة والسلام : ((أفلح إن صدق)) ، وفي رواية : ((دخل الجنة إن صدق)) يعني إن مسك هذه الفرائض وحافظ عليها دخل الجنة . ففرائض الإسلام هي هذه ومباني الإسلام التي عليها يبنى . ولهذا ينبغي على المسلم هذه الخمس التي هي مباني الإسلام أن يحافظ عليها أشد المحافظة، وأن يرعاها أشد الرعاية ، وأن يجاهد نفسه على أن يكون من أهلها إلى أن يتوفاه الله تبارك وتعالى ، مسك بيده وقال : «والله لا أزيد عليها ولا أنقص» يعني تأكيد للمحافظة على هذه الفرائض .

مرةً -وهذا أورده ابن كثير في تفسيره وجوَّد إسناده- جاء رجل إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقطع مفاوز ومسافات إلى أن وصل إلى النبي عليه الصلاة والسلام وكان راكباً على بعيره ، فلما لقي النبي عليه الصلاة

والسلام سأله بم أرسل ؟ بم بعثه الله ؟ فذكر عليه الصلاة والسلام هذه المباني -مباني الإسلام- ، فالرجل كان فوق البعير قال : «أقررتُ» ، لما قال هذه الكلمة ساخت رجل بعيره في حفرة جرذان فسقط من البعير على رأسه واندقت عنقه ومات ، قال النبي عليه الصلاة والسلام : ((إذا أردتم أن تروا الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم فهذا منهم)) ، وهذا الحديث أورده ابن كثير عند هذه الآية من سورة الأنعام ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] ، قال عليه الصلاة والسلام : ((قوموا إلى صاحبكم)) وجاء في بعض الروايات أنه قال : ((إني رأيت الملائكة تدس الفاكهة في فيه)) ، ربما كان جائعاً في ذلك الوقت فعُجِّل له قراه ، قال : «أقررت» .

ولهذا ينبغي على المسلم أن يقر بهذه الفرائض حقاً وصدقاً وأن يكون من أهلها حقاً وصدقاً ؛ يقر ، يلتزم ، يذعن، ينقاد ، يحافظ على هذه الفرائض محافظة تامة . هذا رجل أقر ، ومن حين أقر مات لم يتمكن من العمل لكن التزم به فكان من أهل الجنة . ولهذا ينبغي أن يقر الإنسان بهذه الفرائض وأن يُلزم نفسه بها وأن يحافظ عليها محافظة تامة إلى أن يتوفاه الله سبحانه وتعالى غير مغيّر ولا مبدل .

قال : **((ودليلُ الحجّ قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾))** ؛ وتأمل لهذه الخاتمة التي خُتمت بها الآية قال : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ وتنبه لهذا ؛ الله سبحانه وتعالى غني عن طاعاتك ، غني عن حجك ، غني عن صيامك ، غني عن دعائك ، غني عن صلاتك ، لا تنفعه جل وعلا طاعة من أطاع ،ولا تضره معصية من عصى ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء:١٥] ، جاء في الحديث القدسي حديث أبي ذر في صحيح مسلم أن الله تبارك وتعالى يقول : ((يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً)) ، فهو جل وعلا غني عن العالمين ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥] ؛ غني عن العباد وغني عن طاعاتهم وعن عباداتهم وعن دعواتهم وعن صلواتهم وعن حجهم وعن صيامهم وعن كل ما يتقربون به إلى ربهم غنيٌ عن ذلك . والمعاصي التي يقارفها العباد ويباشرونها لا تضر الله سبحانه وتعالى شيئاً ولا تُنقص من ملكه شيئاً جل وعلا . فالذي يطيع الله ويمتثل أمر الله سبحانه وتعالى طاعته له ، والذي يعصي الله تبارك وتعالى معصيته عليه ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء:١٥] .

ولهذا يجب على المسلم أن يأخذ نفسه في هذا الأمر بالحزم والعزم والجد والاجتهاد والمرابطة والمصابرة ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[آل عمران:٢٠٠] ، ويأخذ نفسه بالمجاهدة ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت:٦٩] ، وفي هذا كله يطلب عون الله وتوفيقه وتسديده وهدايته ، لأن الهداية والتوفيق بيد الله تبارك وتعالى ، ولا سبيل للقيام بأي من الطاعات إلا بتوفيق الله جل وعلا ؛ فيلجأ دوماً وأبداً إلى الله يرجو منه التوفيق والعون والتسديد والهداية ، ويرجوه العبد ألا يكله إلى نفسه «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين» ، «اللهم لا تكلني إلا إليك» ، يسأل الله دائماً وأبداً أن يكون له مؤيداً وموفقاً ومعيناً ، يقول عليه الصلاة والسلام : ((احرص على ما ينفعك واستعن بالله)) .

وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبينا مُحَمَّد وآله وصحبه أجمعين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الدرس الثالث عشر

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

قال شيخ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

المرتبةُ الثانية : الإيمانُ؛ وهو بضعٌ وسبعونَ شعبَة، فأعلاها قولُ لا إله إلاّ الله، وأدْناها إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ، والحياءُ شعبةٌ مِنَ الإيمانِ. وأركانُهُ سِتَّة: أنْ تؤمنَ بالله، وملائكَتِهِ، وكتبِهِ، ورُسُلِهِ، واليومِ الآخرِ، وتؤمن بالقَدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ . والدليلُ على هٰذه الأركانِ الستَّةِ قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾[البقرة:١٧٧]، **ودليلُ القَدَرِ قوله تعالى:** ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر:٤٩].

****

قال المصنف رحمه الله تعالى : ((**المرتبةُ الثانية : الإيمانُ**)) ؛ المرتبةُ الثانية أي من مراتب الدين ، وقد مر معنا قريباً أن ديننا ثلاث مراتب وهي: الإسلام ، والإيمان، والإحسان . ومر معنا أيضاً أن النبي عليه الصلاة والسلام قد جمع هذه المراتب كلها في حديث جبريل ، وذكر عليه الصلاة والسلام أركان كل مرتبة ، وأن الإسلام أركانه خمسة، والإيمان أركانه ستة ، والإحسان ركنٌ واحد ، وسيأتي بيانه عند المصنف رحمه الله تعالى . وهنا شرع رحمه الله تعالى في بيان أركان الإيمان الستة .

وأركان الإيمان: أي أصول الإيمان وقواعده التي لا يقوم إلا عليها ؛ فانتفاؤها أو انتفاء شيء منها محبطٌ للإيمان ومبطلٌ للأعمال ،كما قال الله جل وعلا : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾[المائدة:٥] .

أصول الإيمان أساسٌ يقوم عليها الدين قال الله تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] ، قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩]. فالإيمان أصوله وأركانه ستة وعليها قيام الإيمان ، ولابد من هذه الأصول كاملة ، لابد منها جميعاً ؛ فمن آمن ببعض هذه الأصول وكفر ببعضٍ بطل دينه ، لا بد منها جميعاً فهي أصولٌ متلازمةٌ مترابطة لا ينفك بعضها عن البعض الآخر ، الإيمان ببعضها مستلزم للإيمان بباقيها ، والكفر ببعضها كفر بها جميعها .

وهي أصول عظيمة ، وهي للدين بمثابة الأصول للأشجار والأسُس للبنيان كما قال الله تعالى في سورة إبراهيم : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤)﴾ ؛ هذا مثل ضرب الله جل وعلا للإيمان ، وأن أصول الإيمان كأصول الأشجار لابد أن تكون ثابتة في القلوب مستقرة في النفوس ؛ لكي تقوم شجرة الإيمان وأعماله على أساس راسخ وقواعد مستقيمة ، وأركان الإيمان ستة سيأتي بيانها عند المصنف رحمه الله .

قال : ((**المرتبةُ الثانيةِ : الإيمانُ؛ وهو بضعٌ وسبعونَ شعبَة، فأعلاها قولُ لا إلـٰه إلاّ الله، وأدْناها إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ، والحياءُ شعبةٌ مِنَ الإيمانِ**)) ؛ بدأ رحمه الله حديثه عن الإيمان بهذا الحديث ، وهو معروف عند أهل العلم بـ«حديث الشُّعب» ، وقد أفرده بعض العلماء بمصنفات خاصة في شرح هذا الحديث وبيانه ، لأن هذا الحديث جمع الدين كله .

قال : ((**الإيمانُ بضعٌ وسبعونَ شعبَة**)) البضع : ما زاد على الواحد وما دون العشرة ؛ «بضعٌ وسبعونَ شعبَة» أي أكثر من سبعين شعبة ، والشعبة : هي الطائفة من الشيء ، ومن المعلوم أن الطائفة من الشيء تتناول أفراداً ، فالإيمان شعبٌ كثيرة ، وكل شعبة من هذه الشعب تحتها من الأفراد من خصال الإيمان وما هو داخل فيه أيضاً شيء كثير ، فيكون الحديث فيه دلالة على كثرة خصال الإيمان وتعدد شعبه ، ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أن العدد في الحديث لا مفهوم له وأن المراد به التكثير نظير قوله : ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة:٨٠] العدد لا مفهوم له ، لأنه لو استغفر لهم مئات المرات لا ينفعهم ، لكن هذا العدد السبعين والسبعمئة ونحوه يؤتى به للتضعيف والكثرة ، فقوله «الإيمان بضعٌ وسبعونَ شعبَة» عند بعض أهل العلم المراد به أن الإيمان شعبه كثيرة جداً، وبعض العلماء قالوا لا؛ العدد له مفهوم والعدد مراد ، ولهذا اجتهد بعض العلماء في جمع خصال الإيمان وشعب الإيمان في حدود هذا العدد «بضعٌ وسبعونَ» ، وفي رواية للحديث : ((بضع وستون)) ، فبعض العلماء جمع في حدود هذا العدد المعين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : ((**بضعٌ وسبعونَ شعبَة، أعلاها قولُ لا إلـٰه إلاّ الله، وأدْناها إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ**)) ؛ «أعلاها» : أي أعلى شعب الإيمان وأرفعها ، «وأدْناها» فيه إشارة إلى أن الإيمان له أعلى وأدنى وأن شعبه ليست بمستوى واحد ولا بمنزلة واحدة بل متفاوتة ؛ لها أعلى ، وأعلى الإيمان «قولُ لا إلـٰه إلاّ الله» ، ولها أدنى ، وأدنى الإيمان «إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ» . فإذاً شعب الإيمان متفاوتة .

وإذا نظرت في حال الناس مع هذه الشعب هل هم مستوون في القيام بها أو متفاوتون؟ ولهذا قال العلماء : الإيمان يزيد وينقص ويقوى ويضعف بحسب حال الإنسان مع شعب الإيمان ؛ فكلما ازداد حظاً ونصيباً

من شعب الإيمان زاد إيمانه ، وكلما نقص نقص ، فالإيمان يزيد وينقص ويقوى ويضعف وأهله فيه ليسوا فيه على رتبة واحدة ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٤] ، ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:٢] الإيمان يزيد وينقص؛ ((المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف)) ، ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)) ، فالإيمان يزيد وينقص ويقوى ويضعف وأهله فيه ليسوا فيه سواء بل متفاوتون . وإذا نظرت إلى شعب الإيمان الكثيرة وأن الإيمان له أعلى وله أدنى ، ثم نظرت إلى حال الناس مع شعب الإيمان وجدتهم متفاوتون ؛ فهذا من أبين الأدلة على أن الإيمان يزيد وينقص ويقوى ويضعف .

قال : ((**أعلاها قولُ لا إلٰه إلاّ الله، وأدْناها إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ**)) قوله : «أعلاها قولُ لا إلٰه إلاّ الله» أي أعلى شعب الإيمان ؛ وهذا فيه فضل كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» وأنها أفضل الدين ، وأعلى شعب الإيمان ، وأعظم مباني الإسلام ، وأساس السعادة ، وسبيل الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة ، وهي أجل الكلمات وأحسن الحسنات وأعظم القربات ، قال أبو ذر ﷺ للنبي ﷺ : «أفمن الحسنات لا إله إلا الله؟» قال : ((هي أحسن الحسنات)) ، وهي أفضل الكلمات على الإطلاق كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: ((أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له)) ، فهي أعظم الكلمات على الإطلاق ؛ ولهذا عدها نبينا عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث –حديث الشعب –أعلى شعب الإيمان قال : ((أعلاها قول : لا إله إلا الله)) .

وما المراد بقوله : لا إله إلا الله ؟ هل المراد قولها باللسان مجرداً ؟ أهل العلم يقولون : القول إذا أطلق في الكتاب والسنة يشمل قول القلب ويشمل قول اللسان؛ مثلاً قول الله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ [البقرة:١٣٦] ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ [فصلت:٣٠] القول إذا أطلق المراد به قول القلب وقول اللسان ، أما إذا قُيد فهو بحسب ما قيد به ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [المجادلة:٨] ، ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ [آل عمران:١٦٧] إذا قيد فهو بحسب ما قيد به ، أما إذا أطلق القول فإنه يتناول قول القلب اعتقاداً وقول اللسان نطقاً وتلفظاً .

وعليه فإن قول النبي ﷺ : ((أعلاها)) أي أعلى شعب الإيمان ((قولُ لا إلٰه إلاّ الله)) أي قولها بالقلب عقيدة وباللسان نطقاً وتلفظاً ، أما من قالها بلسانه دون اعتقاد لمضمونها بقلبه فليس هذا من الإيمان . والمنافقون يشهدون أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رسول الله لكن بماذا ؟ بطرف اللسان ، أما القلب خراب تباب ، ولهذا «لا إله إلا الله» قولها لابد أن يكون بالقلب عقيدةً وباللسان نطقاً وتلفظاً .

قال : ((**وأدْناها إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ**)) ؛ إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ : أي تنحيته عن الطريق ، بحيث إذا رأى المسلم في طريق إخوانه المسلمين أذى يحمله عن طريقهم لئلا يؤذيهم ؛ هذا العمل إيمان –من شعب الإيمان– والحديث صريح الدلالة في دخول الأعمال في الإيمان ، وأنها جزء من الإيمان وليست خارجة من مسماه كما يقول أهل البدع ، العمل داخل في الإيمان جزء من الإيمان . قال : ((وأدْناها)) أي أدنى شعب الإيمان ((إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ)) ، فإماطة الأذى عن الطريقِ سماه النبي ﷺ إيماناً ، وهو عمل يقوم به الإنسان بيده ، فهو داخل في الإيمان وجزء منه ويتناوله اسم الإيمان . ولهذا قال العلماء رحمهم الله في تعريف الإيمان: «الإيمان قول واعتقاد وعمل» ، ليس الإيمان قول فقط ولا قول واعتقاد فقط بل الإيمان قول واعتقاد وعمل؛ هذه كلها تدخل في الإيمان .

قال : ((**وأدْناها إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ**)) قد يستهين بعض الناس بهذا العمل! لكن الحديث يدل على شرفه وفضله وعظيم شأنه وأنه شعبة من شعب الإيمان وجزء من الدين ، ولهذا جاءفي صحيح مسلم أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((مر رجل على غصن شجرة فيه شوك فقال : والله لا أدع هذا في طريق المسلمين فيؤذيهم؛ فنحاه عن طريقهم ، فشكر الله عمله فأدخله الجنة)) . إماطة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان ، وفيه دلالة على ما ينبغي أن يكون عليه أهل الإيمان من تراحم وتعاطف وتكاتف وسعي في مصالح بعض ، وأن مثل هذا جزء من إيمانهم يشكره الله لهم ويثيبهم عليه عظيم الثواب .

والناس في هذه الشعبة – أعني إماطة الأذى عن الطريق – أقسام ثلاثة :

١. قسم يميط الأذى عن الطريق .
٢. وقسم يضع الأذى في الطريق .
٣. وقسم يدع الأذى في الطريق ؛ أي لا يميطه .

وخير الناس من كان على هذه الشعبة العظيمة ، قال : ((وأدْناها إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ)) ، وإذا كان من يميط الأذى عن الطريق يؤجر ، فإن من يتعمد وضع الأذى في الطريق يؤزر ويأثم ، لأن هذا إيذاء للناس ولا يجوز له أن يؤذي المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨] والإيذاء متفاوت .

قال : ((**والحياءُ شعبةٌ مِنَ شُعَب الإيمانِ**)) والحياء خلَّة عظيمة وخصلة مباركة من نُزعت منه فارقه الخير ، و((مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت)) ، فالحياء إذا فارق الإنسان فارقه الخير – والعياذ بالله – ، وإذا كان عنده حياء فحياؤه يحجزه ، ولهذا قال العلماء : الحياء خصلة كريمة تحجز عن الرذائل وتمنعه من الخسائس وتسوقه إلى الخيرات .

رأى النبي ﷺ رجلاً يعظ أخاه في الحياء يقول له : لا تستحي، يعظه في الحياء ، فقال النبي ﷺ : ((دعه؛ الحياء لا يأتي إلا بخير)) وفي رواية قال : ((الحياء خير كله)) ؛ إذا كان الإنسان يستحي فحياؤه يجلب له الخيرات ويحجزه بإذن الله عن المعاصي والشرور والآفات .

ولهذا ينبغي على الإنسان أن ينمّي الحياء في قلبه ويقوّيه في نفسه ، وأعظم الحياء وأكبره وأجلُّه أن تستحي ممن خلقك جل وعلا ؛ الذي يراك حين تقوم ، يراك أينما تكون لا تخفى عليه منك خافية ، يطلع عليك ، يرى سرك وعلنك ، يعلم ما يخفي صدرك ، لا تخفى عليه منك خافية ، وهو الذي أمدك بالسمع وأمدك بالصحة وأمدك بالقوة وأمدك بالجسم وأمدك بالمال وأمدك بالمسكن ، أمدك بكل النعم ؛ فأعظم الحياء أن تستحي من الله ، قال عليه الصلاة والسلام : ((استحيوا من الله حق الحياء)) قالوا : «إنا نستحي من الله» قال : ((الحياء من الله أن تحفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى وأن تذكر الموت والبلى)) ؛ هذه حقيقة الحياء من الله؛ يكون حافظاً لرأسه حافظاً لبطنه ، الرأس فيه الحواس فيه السمع ، تحفظ بصرك ، تحفظ سمعك ، تحفظ لسانك ، تحفظ بطنك من أن يدخل فيه الحرام هذا هو الحياء من الله. من السهل على الإنسان أن يقول : أنا أستحي من الله ، هذه الكلمة سهلة على اللسان وليست العبرة بالدعاوى، ولهذا ينبغي على العبد أن يكون في كل وقت وحين على حياء من الرب العظيم والخالق الجليل ، وإذا دعته نفسه إلى معصية أو إلى حرام أو إلى إثم فعليه أن يستحي من الله ، بعض الناس يترك المعصية حياء من الناس وإذا خلا فعلها ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ﴾[النساء:١٠٨] . وإذا عمِر القلب بالحياء من الله سبحانه وتعالى صلحت الأعمال وزكى العبد بالطاعات وأنواع القربات .

قال : ((والحياءُ شعبةٌ مِنَ شُعَبِ الإيمانِ)) ؛ الحياء عمل ومكانه القلب وتظهر آثاره على الإنسان ، وأشد عباد الله تبارك وتعالى حياءً نبينا مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام ، ونعته بعض الصحابة في ذكر حيائه عليه الصلاة والسلام قال : «كان أشد حياء من العذراء في خدرها» ، والعذراء التي في الخدر مضرب المثل في الحياء ، وفي كثير من الناس في مثل هذا الزمان العذراء الصغيرة المقبلة على الزواج مضرب المثل في قلة الحياء الآن في كثير من الأماكن إلا من رحم الله ، بينما التي قاربت الزواج تستحي حتى من والدها ، شديدة الحياء ولا يخطر ببالها أن ترى الرجال أو يراها الرجال من شدة حيائها ، والآن ترفع صوتها فوق صوت الرجل ولا تبالي! وتخاطب الرجال والكبار والصغار كأنها رجل .

قال : ((**والحياءُ شعبةٌ مِنَ شُعَبِ الإيمانِ**)) هذا فيه أن الحياء إيمان وهو عمل قلبي ، فأفاد الحديث أن أعمال القلوب أيضاً داخلة في مسمى الإيمان ، أعمال القلوب مثل : الحياء والتوكل والخشية والخوف

والرجاء ونحو ذلك هذه أعمال في القلب وهي من الإيمان وداخلة في مسماه ؛ ولهذا الإيمان يتناول العقائد والأعمال التي تكون في القلب ، ويتناول الأقوال التي تكون باللسان ، ويتناول الأعمال التي تكون بالجوارح .

وهذه الشعب للإيمان أشرت أنها ليست على درجة واحدة ، ولهذا قسَّمها بعض العلماء إلى أقسام ثلاثة من حيث تأثيرها على الإيمان وجوداً وعدماً ، وزيادة ونقصاً ؛ فذكروا أنها تنقسم إلى أقسام ثلاثة :

- قسم إذا ذهب ذهب الإيمان كليةً وأصبح الإنسان كافراً بالله .
- وقسم إذا ذهب ذهب كمال الإيمان الواجب .
- وقسم إذا ذهب ذهب كمال الإيمان المستحب.

فهي تنقسم في تأثيرها على الإيمان إلى أقسام ثلاثة : قسم منها إذا فُقد أو انتفى انتفى الإيمان ، وقسم إذا انتفى انتفى الإيمان الواجب ، وقسم إذا انتفى انتفى الإيمان المستحب . والواجب على العبد والمطلوب منه أن يجاهد نفسه في تكمل دينه وتتميم إيمانه والمحافظة عليه عقيدةً وقولاً وعملاً .

قال : ((**وأركانُهُ سِتَّة**)) ؛ الإيمان شعب كثيرة كما تقدم في حديث الشعب ، لكن هذه الشعب الكثيرة للإيمان تقوم وتنبني على أركان ستة ، وهي كما قدمت للإيمان بمثابة الأصول للأشجار والقواعد للبنيان ، وهي : ((**أنْ تؤمنَ بالله، وملائكَتِهِ، وكتبِهِ، ورُسُلِهِ، واليومِ الآخرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ**)) ، ثم ذكر الدليل على هذه الأركان الستة من القرآن قال : ((**والدليلُ على هٰذه الأركانِ الستَّةِ قولُه تعالى:** ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ**﴾ ، **ودليلُ القَدَرِ قوله تعالى:** ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾)) .

❖ قوله رحمه الله : ((**وأركانُهُ سِتَّة: أنْ تؤمنَ بالله**)) هذا الأصل الأول من أصول الإيمان ، وهو أصل أصول الإيمان وأعظمها على الإطلاق ، وبقية أصول الإيمان تبع لهذا الأصل ،كما قال الله تعالى : ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة:٢٨٥] ، قوله ﴿وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ هذا دليل على أن هذه الأصول تبع لأصل الأصول وهو الإيمان بالله جل وعلا . والإيمان بالله: هو الإيمان بوحدانية الله تعالى في ربوبيته وأسمائه وصفاته وألوهيته ؛ ولهذا قال العلماء : أركان الإيمان بالله ثلاثة :

الأول : الإيمان بوحدانية الله في ربوبيته ؛ بأن تعتقد اعتقاداً جازماً أن الله جل وعلا رب العالمين ، لا رب لهم سواه ولا خالق إلا إياه ولا مدبر إلا هو ، المتصرف، المعطي المانع ، الخافض الرافع، القابض الباسط ، الذي بيده أزمة الأمور .

والركن الثاني للإيمان بالله : الإيمان بوحدانيته في أسمائه وصفاته ؛ بأن تثبت لله جل وعلا الأسماء الحسنى والصفات العلى الثابتة في كتابه وسنة رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ، وأن تنفي عنه جل وعلا ما نفاه عن نفسه وما نفاه عنه رسوله ﷺ على حد قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] .

❖ والأصل الثاني من أصول الإيمان : الإيمان بالملائكة ؛ ملائكة الله وهم جند لله خلقهم من نور لا يعصون الله جل وعلا ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . والواجب الإيمان بهذا الخلق وإن لم نرهم ، واعتقاد وجودهم ، والإيمان بأسمائهم وأوصافهم ووظائفهم ؛ نؤمن بذلك كله في ضوء كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام إجمالاً فيما أجمل وتفصيلاً فيما فُصِّل . ومن حيث الجملة يجب علينا فيما يتعلق بالإيمان بالملائكة أن نؤمن بأربعة أشياء وهي: الأسماء ، والأعداد ، والأوصاف ، والوظائف . فهذه الأربعة إليها يرجع ما يُطلب من العبد الإيمان به تجاه الملائكة ؛ فنؤمن بأسماء الملائكة ، وأعداد الملائكة، ووظائف الملائكة ، وأوصاف الملائكة إجمالاً فيما أجمل وتفصيلاً فيما فصل . يعني إذا فصِّلت لنا أسماء نؤمن بها ؛ جبريل، إسرافيل، ميكائيل . فصلت لنا أعداد نؤمن بها ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:٣٠] هذا عدد نؤمن به . فصلت لنا أوصاف نؤمن بها يقول عليه الصلاة والسلام : ((رأيت جبريل وقد سد الأفق وله ستمئة جناح)) ، ((أذن لي أن أحدثكم عن أحد الملائكة ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه تخفق فيه الطير سبعمئة سنة)) أي أنه لو طار طير من العاتق إلى شحمة الأذن يحتاج إلى سبعمئة سنة طيران إلى أن يصل إلى شحمة الأذن ، فهذه الأوصاف نؤمن بها .

الوظائف –وظائف الملائكة – نؤمن بها إجمالاً وتفصيلاً ؛ إجمالاً فيما أجمل وتفصيلاً فيما فصل ، وأنهم لا يعصون الله فيما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ويقوم كل ملك بما وكل إليه على التمام والكمال ؛ فهذا كله نؤمن به ، والإيمان به ركن من أركان الإيمان وأصل من أصول الدين .

❖ والركن الثالث : الإيمان بالكتب؛ أي المنزلة على الرسل، «بالكتب» أي كلها ما علمناه منها وما لا نعلمه، ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ [الشورى:١٥] أي بكل كتاب أنزله الله على أي رسول، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [الحديد:٢٥] فنحن نؤمن بالكتب المنزلة ، نؤمن بأنها وحي الله وتنزيله ، نؤمن بأن الذي تكلم بها هو ربنا جل وعلا ، هي كلامه سبحانه ، نؤمن بها بأنها اشتملت على هداية الخلق وبيان الحق وإرشاد الناس للخير ونهيهم عن الشر والضلال ، نؤمن بأن من آمن بالكتب وحقق ما

جاءت به فهو السعيد ، ومن لم يؤمن بها فهو الخاسر، نؤمن بأن كتب الله جل وعلا متفقة مؤتلفة ليست مختلفة؛ يؤيد بعضها بعضاً ويشهد بعضها لبعض وكلها تدعو إلى الإيمان بالله والإيمان بوحدانية الله جل وعلا أنه المعبود بحق وتدعو إلى هذه الأصول العظيمة والأسس المتينة وقد يكون بينها شيء من الفروقات في الشرائع ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨] ، ونؤمن بأن الكتب المنزلة ختمت بالقرآن ، وكما أن نبينا عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين فالقرآن خاتم الكتب المنزلة ، وكما أنه لا نبي بعده فلا كتاب منزل بعده عليه الصلاة والسلام ، ختمت الكتب بالقرآن الكريم كما أن النبوات ختمت بنبوته عليه الصلاة والسلام .

ونؤمن بالقرآن إيماناً خاصاً ؛ فهو كتاب الهداية لهذه الأمة ، ولا يجوز العمل بالكتب الذي قبله لأنه نسخها ، وهو المهيمن عليها وهو الشاهد لما قبله والمصدق لما بين يديه والناسخ للكتب التي قبله ، وبعد نزول القرآن لا يُعمل إلا بالقرآن ، وبعد بعث مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام لا يُتبع إلا مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام ، قال : ((والذي نفسي بيده لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بالذي جئت به إلا كان حقاً على الله أن يدخله النار)) . نؤمن بالقرآن أنه كتاب هداية ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩] نصدق بأخباره ونعمل بأوامره وننتهي عن نواهيه ونهتدي بهداه ، وهو كتاب عز للأمة وسعادة ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه:٢] أي بل أنزلناه لتسعد ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه:١٢٣-١٢٤] .

❖ والأصل الرابع : الإيمان بالرسل الكرام ؛ رسل الله جل وعلا ، وهم صفوة الخلق وخيارهم ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج:٧٥] فهم صفوة الناس اختارهم الله على علم ، وهم صفوة عباد الله وخيارهم ؛ بعثهم الله جل وعلا بالرسالة وجعلهم مبشرين ومنذرين، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] .

نؤمن بالرسل كلهم بدأ من أولهم إلى خاتمهم نبينا مُحَمَّد صلوات الله وسلامه عليه ، نؤمن بأنهم رسل الله وأنهم دعاة الحق والهدى ، وأنهم قادة الأمة وأئمة الهدى ، وأن من اتبعهم وسار على نهجهم سعد في الدين والآخرة ، ومن لم يتبعهم خسر خسراناً مبيناً ، ونؤمن بأنهم ختموا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، ونؤمن بأنهم متفاضلون ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥]، وأفضل الأنبياء الرسل ، وأفضل

الرسل أولو العزم من الرسل وهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومُحَمَّد عليه الصلاة والسلام ، وأفضل أولو العزم من الرسل: مُحَمَّد ﷺ ؛ فهو سيد الأولين والآخرين .

والرسل إنما بعثوا ليطاعوا ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [النساء:٦٤] ؛ ولهذا الإيمان بهم : طاعتهم فيما يأمرون ، والانتهاء عما عنه ينهون ، وتصديقهم فيما يخبرون به ؛ هذا معنى الإيمان بالرسل ، وهو الركن الرابع من أركان الإيمان .

❖ الركن الخامس : الإيمان باليوم الآخر ؛ والإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بكل ما يكون بعد الموت ، لأن من مات قامت قيامته وبدأت مراحل الدار الآخرة في حقه ، ولهذا أول ما يدرج القبر يبدأ النعيم أو العذاب ، أول ما يدخل قبره يأتيه ملكان ويجلسانه ويقولان : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ ، اسمهما المنكر والنكير لأنهما يأتيان على هيئة منكرة غير معهودة ، ويسألان أسئلة محددة ثلاثة : من ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ ، ولأجل هذا ولأجل النصح في هذا الباب كتب المصنف رحمه الله هذه الأصول الثلاثة في بيان هذه الأصول : من ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ نصحاً للعباد ومعذرة إلى الله جل وعلا .

فالإيمان باليوم الآخر: هو الإيمان بكل ما يكون بعد الموت ؛ بدً من فتنة القبر وعذابه ونعيمه ، النفخ في الصور ، البعث والنشور ، القيام لرب العالمين ، الحشر ، الميزان ،، الصراط ، الجنة ، النار ؛ كل التفاصيل التي جاءت في الكتاب والسنة مما يكون بعد الموت الإيمان بها هو من الإيمان باليوم الآخر . ومن لم يؤمن باليوم الآخر أو شك فيما يكون فيه من بعث أو نشور أو جنة أو نار أو حساب أو غير ذلك فهو كافر ، قال الله تعالى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن:٧]، فالبعث والقيام والجزاء والحساب والصراط والدواوين والميزان والجنة والنار كل ذلك حق والإيمان به هو من الإيمان باليوم الآخر وهو ركن من أركان الإيمان .

وكثيراً ما يقرن الله جل وعلا بين الإيمان به والإيمان باليوم الآخر في آيات ، وأيضاً يأتي في السنة ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر)) ؛ يُقرن بينهما لأن الله عز وجل هو المقصود ، واليوم الآخر هو اليوم الموعود يوم الجزاء والحساب والعقاب ، فالمقصود هو الله بالعبادة ، ويوم القيامة هو يوم الجزاء والحساب على ذلك .

والناس في الإيمان باليوم الآخر على درجتين : درجة الإيمان الجازم ، ودرجة الإيمان الراسخ . الإيمان الجازم هي الدرجة التي ليس بعدها إلا الشك والكفر ، والإيمان الراسخ هو الإيمان المتمكن بالقلب الذي عُمر القلب به ومليء به وثبت في القلب ثبوتاً ورسخ رسوخاً ، وهذا الإيمان الراسخ هو الذي يؤثر التأثير القوي

في العبد صلاحاً في أعماله واستعداداً ليوم لقائه لربه جل وعلا ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة:١٩٧] . فالعبد أعماله وأموره وطاعاته كلها يلقى الله بها ، فإن كان مستحضراً لليوم الآخر زاد في العمل ، قال علي ﷺ : «ارتحلت الآخرة مقبلة وارتحلت الدنيا مدبرة ، ولكل منهما بنون» يعني في أبناء للدنيا وفي أبناء للآخرة « فكونوا أبناء الآخرة ولا تكونوا أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب وغد حساب ولا عمل» .

الحج يذكر باليوم الآخر ولاسيما الوقوف في صعيد عرفة واجتماع الخلق من أنحاء الدنيا وعلى صعيد واحد وفي أرض واحدة أرض منبسطة ؛ فهذا يذكر باليوم الآخر ، يذكر بالوقوف يوم القيامة بين يدي الله جل وعلا ، والذين يقفون على صعيد عرفات تركوا دنياهم في بلدانهم ، والذين يقفون أمام الله جل وعلا ليس معهم من الدنيا شيء ، ولهذا الذي يرجع من بلده بعد الحج عليه أن يستفيد من هذا الدرس وأن يكون دائماً على ذكر للإيمان باليوم الآخر ، وهذه وصية الله جل وعلا لعباده عند الفراغ من الحج ، عندما تقرأ آيات الحج في سورة البقرة تجد أنها ختمت بقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [البقرة:٢٠٣] ، خذوا هذا الدرس معكم إلى بلدانكم بعد فراغكم من الحج ؛ اعلموا أنكم إليه تحشرون ، مثلما اجتمعتم على صعيد واحد جمعكم رب العالمين من أنحاء الدنيا ستحشرون إلى الله وتقفون أجمعين الأولين والآخرين على صعيد واحد ، وستسألون عما قدمتم في هذه الحياة .

❖ قال رحمه الله : ((**وتؤمن بالقَدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ**)) وهذا الأصل السادس من أصول الإيمان ، الأصل السادس من أصول الإيمان أن تؤمن بالقدر خيره وشره ، والقدر قدرة الله ، القدر هو إيمانك أن الأمور بتقدير الله وتدبيره ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ [طه:٤٠] ، ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ [الأحزاب:٣٨] ، ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [الأعلى:١-٣] ، فالأمور كلها بتقدير الله جل وعلا؛ ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، أحاط علماً بكل شيء ووسعت قدرته كل شيء ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء . فمن أصول الإيمان أن تؤمن بالقدر ، قال عليه الصلاة والسلام : ((كل شيء بقدر حتى العجز والكيس)) ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : « كل شيء بقدر حتى وضعك كفك على ذقنك» هكذا – وضع كفه على ذقنه – ﷺ قال : حتى وضعك كفك على ذقنك هذا بقدر يعني قدّره الله عليك قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف

سنة ، اجتماعنا هذا قدّره الله قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)) ، كل ما يكون في هذا الكون من حركة وسكون وقيام وقعود وذهاب ورواح وكفر وإيمان وطاعة وعصيان كل ذلك كُتب ((إن الله كتب مقادير الخلائق)) ، وفي القرآن : ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠] ، فالله عز وجل كتب كل ما هو كائن إلى يوم القيامة ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر:٥٢-٥٣] ، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩] .

فيجب على العبد أن يؤمن بهذا الأصل ومن لم يؤمن بالقدر فهو كافر ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : «القدر نظام التوحيد» يعني لا ينتظم التوحيد إلا بالإيمان بالقدر ، قال : «الإيمان بالقدر نظام التوحيد ؛ فمن وحد بالله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده» بمعنى أنه لا يكون مؤمناً بالله إلا إذا آمن بأقدار الله سبحانه وتعالى ، ولما قيل لابن عمر رضي الله عنهما عن أقوام يقولون : الأمر أُنف ولا قدر ؛ قال ابن عمر : «أخبرهم أنني بريء منهم وأنهم مني برءاء ، والذي نفسي بيدي لو أن أحدهم أنفق مثل أحد ذهباً ما تقبله الله منه ما لم يؤمن بالقدر» ، الأعمال كلها لا تقبل؛ الصدقات لا تقبل ، الصلوات لا تقبل ، الحج لا يقبل إذا لم يؤمن بالقدر ، القدر أصل من أصول الإيمان لا يقوم الإيمان إلا عليه ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٥] .

والعلماء رحمهم الله يقولون : الإيمان بالقدر مراتبه أربعة؛ بمعنى أن من لم يؤمن بهذه المراتب ليس مؤمناً بالقدر .

الإيمان بالقدر مراتبه أربعة :

- الأولى : أن تؤمن إيماناً جازماً أن الله أحاط بكل شيء علماً ؛ علم ما كان وعلم ما سيكون وعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧] ، تؤمن بعلم الله المحيط بالمخلوقات كلها دقيقها وصغيرها سرها وعلنها، أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك:١٤] ، خلْقه للمخلوقات دليل على إحاطة علمه بها ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢] خلقه لهذه المخلوقات دليل على إحاطة علمه تبارك وتعالى بها، فمن لم يؤمن بعلم الله المحيط ليس مؤمناً بهذا الأصل العظيم وليس مؤمناً بالله .

- المرتبة الثانية : الإيمان بالكتابة؛ أن الله عز وجل كتب مقادير الخلائق كلها في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠] ، قال عليه الصلاة والسلام : ((أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ؛ فجرى القلم كتابةً بما هو كائن إلى يوم القيامة)) ، قال عليه الصلاة والسلام : ((إن الله تعالى كتب مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)) كل مقادير الخلائق كُتبت ، فيؤمن بالكتابة بأن كل شيء كتب في اللوح المحفوظ .
- المرتبة الثالثة : الإيمان بالمشيئة النافذة وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران:٤٠] ، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩] ، نؤمن بأن مشيئة الله نافذة في هذا الكون ، وأن قدرته تبارك وتعالى شاملة ، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء .
- المرتبة الرابعة : الإيمان بأن الله خالق كل شيء ،كما قال تعالى : ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر:٦٢] وقال تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦] ؛ خالق الذوات والأشخاص وخالق الأفعال والحركات والسكنات ، فأفعال العباد مخلوقة لله مثل ما أن العباد أنفسهم مخلوقون لله تبارك وتعالى ، فالله تبارك وتعالى خالق كل شيء.

هذه مراتب الإيمان بالقدر ومن لم يؤمن بهذه المراتب لا يكون مؤمناً بالقدر . جمعها أحدهم في بيت فقال :

علمٌ كتابة مولانا مشيئته　　　　وخلْقه وهو إيجاد وتكوين

فهذه مراتب الإيمان بالقدر . قال : ((**وأن تؤمن بالقَدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ من الله تعالى**)) أي أن الله قدر كل شيء .

الصحابة رضي الله عنهم جال في أذهانهم سؤال ، ثار في أذهانهم سؤال ؛ لما علموا هذه الحقيقة سألوا النبي عليه الصلاة والسلام قالوا : « إذا كانت الأمور كتبت وقدِّرت وكتب الله كل ما قدر ما هو كائن إلا يوم القيامة ففيم العمل؟» في بعض الأحاديث قالوا : «ألا نتكل على الكتاب ؟» مادام كل شيء مكتوب لماذا نعمل ؟ فيم العمل؟ هذا السؤال استفهام واستعلام واستيضاح وطلب للحق . وبعض الناس سؤاله في هذا المقام للاعتراض والانتقاد ، وهذا عين الضلال قال الله تعالى : ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣] إذا كان الإنسان يسأل ويعترض على الله فهذا عين الضلال والعياذ بالله ، أما إذا كان الإنسان يسأل ليستوضح ويتبين ليسير على بينة وعلى هدى فهذا لا بأس به . قالوا : «ففيم العمل ؟» يستفسرون ، قال : ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له ؛ فمن كان من أهل السعادة يسَّره الله لعمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل

الشقاوة يسره الله لعمل أهل الشقاوة)) . قال : «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» ذكر أمرين والله لا يسعد الإنسان إلا بهما ؛ « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

قال : « اعمل » وهذا فيه إشارة إلى أن عندك مشيئة تختار بها طريق الحق وطريق الباطل ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠] ، لك مشيئة ومشيئتك تحت مشيئة الله ، فإذاً ماذا يطلب منك ؟ قال : « اعمل » يعني تحرك ببذل الأعمال الصالحة والطاعات الزاكية والقربات والبعد عن المحرمات ، واستعن بالله لأنك ميسر لما خلقت له ، اطلب عونك من الله .

ولهذا سعادتك بالأمرين : أن تجاهد نفسك بالأعمال الصالحة ، وفي الوقت نفسه تطلب العون والتوفيق والسداد والهداية والرشاد من الله، لأن الأمر كله بيد الله ، قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الآخر : ((احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن، ولا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل)).

فالواجب على العبد أن يكون مؤمناً بهذا الأصل العظيم وبهذا الركن المتين، وأن يجاهد نفسه على الأعمال الصالحات والطاعات الزاكيات ، وأن يسأل ربه تبارك وتعالى أن يهديه وأن يثبته وأن يعيذه من زيغ القلوب، كان أكثر دعاء نبينا عليه الصلاة والسلام : «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» ، قالت أم سلمة ﵂ قلت : يا رسول الله أو أن القلوب لتتقلب ؟ قال : ((ما من قلب إلا هو بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء ، فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه)) . ولهذا يجب على العبد أن يكون دائم السؤال لربه أن يثبته ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم:٢٧].

لما أنهى المصنف رحمه الله ذكر هذه الأركان الستة للإيمان ذكر دليلها من القرآن قال : ((**والدليلُ على هٰذه الأركانِ الستَّةِ قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾**)) كم ركن ؟ خمسة أركان ذكرت في هذه الآية ، ولم يذكر القدر لأنه داخل في الإيمان بالله ؛ القدر قدرة الله فهو داخل في الإيمان بالله ، ونُص عليه مفرداً في بعض الآيات كالآية التي ساقها المصنف وهي قوله تعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ .فهذه أصول الإيمان اجتمعت في الآية .

قال : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ ليس حقيقة البر في التوجه إلى الأمكنة ، حقيقة البر في الطواعية لله والامتثال بحيث إذا وجهك لشيء أو أمرك بشيء امتثلت هذه هي حقيقة البر ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ البر طاعة الله وامتثال أمره وتصديق أخباره والإيمان به وبكل ما أمر بالإيمان به ؛ هذه هي حقيقة البر.

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ فذكر الله تبارك وتعالى أصول الإيمان في هذه الآية مجتمعة ، كما أنه جل وعلا ذكرها مجتمعة في قوله : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦] ، وجمعها في الآية ما قبل الأخيرة من سورة البقرة ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥] كم أصل ذُكر ؟ خمسة أركان ذكرت ، والإيمان بالقدر داخل في الإيمان بالله تبارك وتعالى ، لأن القدر كما قال الإمام أحمد قدرة الله ، والإيمان بالله جل وعلا إيمان بعلمه وإيمان بقدرته وإيمان بمشيئته وإيمان بأنه الخالق جل وعلا ، فالإيمان بالقدر داخل في الإيمان بالله تبارك وتعالى .

ثم أورد رحمه الله تعالى دليلاً مفرداً للإيمان بالقدر من القرآن وهو قول الله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ أي كل شيء أوجدناه فهو مقدَّر؛ قدره الله وكتبه سبحانه وتعالى في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة .

وبهذا يكون المصنف رحمه الله أنهى الكلام على المرتبة الثانية من مراتب الدين وهي مرتبة الإيمان ، فذكر حديث الشعب ، وذكر أصول الإيمان وذكر الأدلة عليها من كتاب الله تبارك وتعالى .

والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبينا مُحَمَّد وآله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الرابع عشر

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله ؛صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ، أما بعد :

قال شيخ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين:

المرتبةُ الثالثةُ: الإحسانُ وهو ركنٌ واحدٌ، وهو أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ فإنْ لم تكنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ، والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾[النحل:١٢٨]، **وقولُهُ تعالى:** ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[الشعراء:٢١٧-٢٢٠]، **وقولُهُ تعالى:** ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[يونس:٦١] **الآية.**

****

قال المصنف رحمه الله تعالى : ((**المرتبةُ الثالثةُ: الإحسانُ، وهو ركنٌ واحدٌ**)) ؛ «المرتبةُ الثالثةُ» أي من مراتب الدين ، وعرفنا سابقاً أن الدين ثلاث مراتب وهي: الإسلام والإيمان والإحسان ، وهذه المرتبة هي أعلى مراتب الدين وأرفعها ، ثم يليها مرتبة الإيمان ، ثم يليها مرتبة الإسلام ، وليس بعد الإسلام إلا الكفر ؛ فمرتبة الإحسان هي أعلى مراتب الدين وأرفعها ، فهي مرتبة عليّة ومنزلة رفيعة لا يبلغها كل أحد ، وإنما يبلغها من يسر الله تبارك وتعالى له ووفقه لبلوغ هذه المرتبة .

والإحسان المراد به: الإجادة والإتقان ، وهذه المرتبة – مرتبة الإحسان – المراد بها إيقاع العمل والعبادة على أكمل الوجوه وأحسن الأحوال في الظاهر والباطن والسر والعلن ؛ فالمحسنون من عباد الله –أهل الإحسان من عباد الله– هم الذين اتقنوا العبادة بحيث أتوا بها ووقعت منهم كاملة من جميع الوجوه ظاهراً وباطناً سراً وعلناً ؛ وذلك لعظم مراقبتهم لله سبحانه وتعالى في عبادتهم وتقربهم إلى الله جل وعلا ، فهم حالهم في عبادة الله أنهم يعبدون الله كأنهم يرون الله ، وهذا فيه أنهم بلغوا الرتبة العلية في المراقبة – مراقبة الله في أعمالهم – بحيث تكون قلوبهم حاضرة وشاهدة بعيدة عن الغفلة .

قال : ((**وهو ركنٌ واحدٌ**)) يعني هذا الركن أو هذه المرتبة – مرتبة الإحسان – ركن واحد ، مرّ معنا الإسلام خمسة أركان ، والإيمان ستة أركان ، والإحسان ركن واحد .

((وهو أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ فإنْ لم تكنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ)) هذه مرتبة الإحسان ؛ أي أتقنوا عملهم وعبادتهم إلى أن صار حالهم في العبادة بهذا الصلاح «أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ فإنْ لم تكنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ» ، وهذا وإن كان ركناً واحداً إلا أن بعض أهل العلم يعدُّه مقامين هي الاستحضار والمراقبة :

- الأول : أن تعبد الله كأنك تراه؛ وهذا أعلى المقامين ، أن يكون في عبادته لله سبحانه وتعالى كأنه يرى الله ، كأنه ينظر إلى الله جل وعلا .
- والمقام الثاني وهو دون هذا المقام وهو من الإحسان في قوله : «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ؛ يعني إن لم تبلغ هذه الدرجة أن تعبد الله كأنك تراه فاعبده مستحضراً رؤيته لك وإطلاعه سبحانه وتعالى عليك .

ثم أخذ رحمه الله يذكر الأدلة من القرآن الكريم على هذه المرتبة ؛ فذكر جملةً من الأدلة بدأها بقول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ** ﴾؛ «اتَّقَوْا»: أي ابتعدوا واجتنبوا كل ما يسخط الله ويغضبه جل وعلا من المعاصي والذنوب ، فكانوا من الذنوب على حذر ، متقين ومبتعدين عن كل أمر يسخط الله جل وعلا . «وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ» أي في عبادتهم لله ومراقبتهم له جل وعلا وإصلاح حالهم في السر والعلن والغيب والشهادة ، وأنهم يعبدون الله سبحانه وتعالى عبادة من يراقبُ الله ويخشاه جل وعلا .

قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ ؛ والآية دلت على فضل الإحسان وعلو مقامه من جهة إثبات معية الله الخاصة للمحسنين ، لأن المعية في مقام المدح والثناء يراد بها المعية الخاصة ؛ وهي تعني : الحفظ والتأييد والنصر والعون ، قال الله جل وعلا: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾[التوبة:٤٠] ، قول النبي عليه الصلاة والسلام لأبي بكر رضي الله عنه ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ ، وقول الله تعالى لموسى وأخيه هارون : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾[طه:٤٦] . فالمعية في مثل هذه الآيات معية خاصة ؛ وهي لا تكون إلا لأنبياء الله وعباده المتقين ، وهي تقتضي الحفظ والنصر والعون والتأييد . وفي الحديث القدسي يقول الله جل وعلا : ((ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي عليها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه)) ، معنى : « كنت سمعه ، كنت بصره ، كنت يده» : أن الله يؤيده في سمعه وفي بصره ويكون حافظاً له في حواسّه جل وعلا .

فهذه الآية فيها دلالة على فضيلة الإحسان ، وعظم ثواب المحسنين ، وأن الله سبحانه وتعالى معهم حافظاً وناصراً ومعيناً ومؤيداً .

ثم ذكر رحمه الله الآية الثانية وهي قول الله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ قوله «وَتَوَكَّلْ»: أي فوض أمورك كلها إلى الله ، واعتمد عليه سبحانه وتعالى وحده في جلب النعماء وفي كشف الضر والبلاء؛ فلا تلجأ إلا إليه ولا تعتمد إلا عليه.

قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ وفي آيةٍ أخرى قال : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان:٥٨] ، وهنا قال : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ .

في الآية الأخرى قال : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ لأن التوكل لجوءٌ واعتماد ولا يكون هذا اللجوء إلا لواحد وهو الحي الذي لا يموت ، أما الحي الذي يموت ، والحي الذي قد مات ، والجماد الذي لا حياة له أصلاً كل هؤلاء لا يُتوكل عليهم ، لا يتوكل إلا على الحي الذي لا يموت وهو رب العالمين لا شريك له ، ومن سوى الله إما حيٌ سيموت أو حيٌ قد مات أو جماد لا حياة له ، وكل هذه الأصناف لا يتوكل عليها ، التوكل لا يكون إلا على الحي الذي لا يموت وهو رب العالمين سبحانه . وقد كان نبينا عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه : «اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت فأنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون» ؛ فهذه فائدة عظيمة في باب التوكل والالتجاء والاعتماد والاعتصام لا يكون شيء من ذلك إلا على الحي الذي لا يموت وهو رب العالمين ، أما الحي الذي يموت والحي الذي قد مات والجماد الذي لا حياة له كيف يُتوكل على هؤلاء ؟! وكيف يعتمد على هؤلاء ؟!

وهنا في هذه الآية قال : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ ذكر هذين الاسمين في مقام الأمر بالتوكل عليه وحده ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ ؛ وذلك لأن المتوكل إما متوكلٌ في دفع ضراء ، أو متوكلٌ في جلب نعماء ، فلا يكون توكله في شيءٍ من ذلك إلا على العزيز الرحيم ، فالعزيز: هو القاهر الذي لا يُغلب ، فإذا لجأت إليه في كشف ضراء وشدةٍ وبلاء فهو جل وعلا عزيز قادرٌ لا يغلب ، وإذا كان توكل عليه في جلب نعماء فهو جل وعلا رحيمٌ بعباده يمنُّ ويعطي ويتفضل ويحسن ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أي ليكن توكلك على من هذا شأنه ؛ الله جل وعلا .

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ وهذا موضع الشاهد من الآية لمرتبة الإحسان «أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ فإنْ لم تكنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ» ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ(٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ .

﴿الَّذِي يَرَاكَ﴾ أي الذي ينظر إليك ويطّلع عليك ولا تخفى عليه منك خافية ، ﴿يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ حين تقوم لله خاشعاً خاضعاً مناجياً سائلاً راغباً طامعاً ؛ يراك جل وعلا ، يراك سبحانه وتعالى من فوق سبع سماوات ، ويرى جميع المخلوقات وجميع الكائنات ، لا يفوته شيء ، ولا يعزب عنه شيء ، ولا يغيب عنه شيء، يرى جميع الكائنات ، يرى سبحانه وتعالى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ، ويرى جريان الدم في عروقها ويرى كل جزء من أجزائها ﴿الَّذِي يَرَاكَ﴾ ؛ وهذا فيه دعوة للعبد أن يعبد الله سبحانه وتعالى مستشعراً رؤية الله له ومحضراً ذلك في قلبه ، ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ عندما تقوم تصلي فاعلم أن الله يراك ؛ يراك حال قيامك ، يراك حال سجودك ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ تركع وتسجد وتركع وتسجد هذا التقلب يراك الله جل وعلا على هذه الأحوال كلها ؛ وهذا فيه دعوة لاستحضار هذا الأمر في القيام والركوع والسجود بحيث يكون العبد في صلاته وعبادته يعبد الله كأنه يرى الله ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ السميع للأصوات ، وسع تبارك وتعالى سمعه الأصوات كلها ، لو قام الأولون والآخرون من زمن آدم من الإنس والجن في صعيدٍ واحد ودعوا في لحظةٍ واحدة ، وكلٌ يذكر حاجته، وكلٌ يتكلم بلغته ولهجته ، لسمعهم رب العالمين أجمعين دون أن يختلط عليه صوتٌ بصوت أو حاجةٌ بحاجة أو لغةٌ بلغة . قال جل وعلا في الحديث القدسي وهو في صحيح مسلم : ((يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحد فسألوني فأعطيت كل واحدٍ مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا غُمس في اليمّ)) أي في البحر . جاءت امرأة إلى النبي عليه الصلاة والسلام في بيته تجادل في زوجها وتشتكي إلى الله ، وذلك عندما ظاهرها زوجها قال : «أنت عليّ كظهر أمي» ولها منه أولاد ، فجاءت حزينة متألمة تجادل النبي ﷺ في زوجها وتشتكي إلى الله ، فكانت تكلمه في مصيبتها ، وعائشة رضي الله عنها في البيت تقول : «كنت أسمع بعض الكلام ويفوتني بعضه» ، وبمجرد أن تنتهي من الحديث مع النبي ﷺ ينزل قول الله تعالى : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١] قالت عائشة رضي الله عنها على إثر ذلك : «سبحان الذي وسع سمعه الأصوات» .

قال : ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي بعلمٍ واسع ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[غافر:٧] ، أحاط بجميع الأمور وأحاط بجميع الأشياء ، أحاط جل وعلا بكل شيءٍ علماً وأحصى كل شيء عدداً . علم جل وعلا ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، ليس فقط ما سيكون! بل الأشياء التي لا تكون علم الله سبحانه وتعالى أمرها لو كانت كيف تكون ، ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[الأنعام:٢٨] هذا أمرٌ لا يكون ، الكفار يوم القيامة لا يردون إلى الدنيا مرةً ثانية ، هذا أمرٌ لا يكون ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾[فاطر:٣٦] ولا يردون إلى الدنيا مرة ثانية هذا شيءٌ لا يكون ، والله جل وعلا يقول : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ؛ يعني لو أعادهم جل وعلا إلى الدنيا مرة ثانية لعادوا إلى الشرك والكفر ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ، أمرٌ لا يكون لكن رب العالمين علم جل وعلا لو كان هذا الأمر كيف يكون . فهو علم ما كان وعلم ما سيكون وعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون ، أحاط بكل شيء علماً .

قال : ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ هنا تستشعر أثر معرفة العبد أسماء الله وصفاته في تحقيق العبادة وتكميلها ؛ فإذا استحضر العبد أن الله سميع وأنه بصير وأنه عليم ، وهذه الأمور الثلاثة ذكرت في الآية –البصير، السميع، العليم– البصير في قوله : ﴿الَّذِي يَرَاكَ﴾ ، والسميع العليم خُتمت بهما الآية . فاستحضار هذه الأسماء وما تدل عليه من الصفات : البصير ، السميع، العليم ، استحضار العبد لها في صلاته يرفعه في صلاته إلى درجة الإحسان في عبادته وتقربه إلى الله جل وعلا ، وإذا ذهب عنه استحضار هذه الأسماء استولت عليه الغفلة سواء في صلاته أو في غيرها من العبادات .

قال : **((وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾))** وهذه فيها معنى الآية السابقة ؛ يقول الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أي في أيِّ شان من شؤونك وأمرٍ من أمورك وحالٍ من أحوالك ، ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ أي ما تتلوا شيئاً من هذا الكتاب في أي وقتٍ وفي أي ساعةٍ وفي أي لحظة ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ أي لا تدخلون في أي عمل من الأعمال ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي إذ تدخلون وتشرعون فيه . فالله سبحانه وتعالى شهيدٌ ؛ لا يدخل العبد في عمل ولا يشرع في طاعة ولا في أي شأنٍ من الشؤون ولا حال من الأحوال إلا والله جل وعلا شهيد ، وهو على كل شيءٍ شهيد جل وعلا ؛ أي مطلع لا تخفى عليه سبحانه وتعالى خافية .

فهذه الآيات تأملها والوقوف عند مضامينها ودلالاتها يعين العبد بإذن الله تبارك وتعالى للترقي لبلوغ الإحسان في عبادته والإتقان في طاعته وتقربه إلى الله سبحانه وتعالى .

ولما أنهى المصنف رحمه الله مراتب الدين الثلاثة وذكر أركان كلِّ مرتبة وذكر الدليل على ذلك كله من القرآن ، ختم ذلك بذكر حديث جبريل المشهور الذي جمع فيه النبي عليه الصلاة والسلام مراتب الدين كلها .

قال :

والدليلُ مِنَ السُّنَّة حديثُ جبريل المشهور عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: بينما نحن جُلوسٌ عند رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم، إذا طلع علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثياب شديدُ سوادِ الشَّعر، لا يُرى عليه أثَرُ السَّفر، ولا يعرفه مِنَّا أحد، حتّى جلس إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاسند رُكبَتَيْه إلى رُكبَتَيْه، ووضع كَفَّيْه على فخذيه، وقال: يا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإسلام. فقال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((الإِسْلاَمُ أن تَشْهَدَ أَن لا إِلَهَ إلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَدًا رَسُولُ الله، وَتُقِيمَ الصَلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اِسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلا))، قال: صَدَقْتَ. فعجبنا له يسأله ويُصَدِّقُه! قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: ((أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلهِ وَاليَوْمِ الآخِرْ،وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرَّهِ))، قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: ((أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّك تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهْ فَإِنَّهُ يَرَاكْ)). قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعة؟ قال: ((مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ)). قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟ قال: ((أَنْ تَلِدَ الأمة رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ)). قال: فَمَضَى فَلَبِثنا مَلِيّا، فقال: ((يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟)) قلت: الله ورسوله أعلَم، قال: ((هذا جِبْرِيلُ، أَتَاكُمُ يُعَلِمُكُمْ أمر دِينَكُمْ)).

****

أورد رحمه الله تعالى هنا هذا الحديث العظيم المشهور بـ«حديث جبريل» ؛ وذلك لأن جبريل عليه السلام وهو أفضل الملائكة وهو الملك الذي ينزل بالوحي إلى النبي ﷺ الروح الأمين جاء إلى النبي ﷺ في هذه المرة بصورة أعرابيّ – بصورة رجل – فجلس إلى النبي عليه الصلاة والسلام هذه الجلسة وسأله هذه الأسئلة ؛ ولهذا اشتُهر هذا الحديث بـ«حديث جبريل» ؛ لأنه جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام بتلك الصورة وجاء معلماً ، وإن كان هو في الحقيقة سائلاً لكنه سائل في صورة متعلم . ولهذا أخذ أهل العلم من هذا فائدة في باب الأسئلة ألا وهي: أن السائل أحياناً يستطيع أن يكون معلماً للناس ، مثل أن يكون في المجلس عالم ويحس أحد الحاضرين بمسألة يحتاج الجميع أن تُبين لهم أو مسائل ؛ فيطرحها وهو يعرف الجواب ولكن يريد

أن يستفيد الجميع ، فيكون في الحقيقة سائل ، لكن في الواقع معلم يريد أن يتعلم الناس ، وله أجره على إحسانه وحرصه . بينما بعض المجالس قد يأتي فيها العالم الذي يستفاد منه فيضيعها بعض الناس ، يضيعها على الناس دون استفادة ، أو بأسئلةٍ لا يكون من ورائها طائل أو لا تفيد الحاضرين .

فالسؤال أمرٌ يحتاج إلى حسن نية وحسن قصد في طلب الفائدة وصدق مع الله تبارك وتعالى في الرغبة ، مثل قول وفد عبد القيس للنبي عليه الصلاة والسلام : « مُرنا بقول فصل نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة » وهذا يبين متى يكون السؤال صالحاً حسناً ، قال : «مرنا بقول فصلٍ نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة» ؛ إذا كان السائل يقصد بسؤاله أن يدخل الجنة بمعرفة الخير والعلم ويخبر الآخرين لينتشر الخير والعلم. فالشاهد أن هذا الحديث فيه فائدة عظيمة في هذا الجانب .

قال عمر ﷺ : « **بينما نحن جُلوسٌ عند رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إذا طلع علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثياب، شديد سوادِ الشَّعر، لا يُرى عليه أثَرُ السَّفر، ولا يعرفه مِنَّا أحد**» ؛ هذا الأمر بهذه الصفة في زمنهم ووقتهم يعدُّ أمراً في غاية الغرابة ، أما في زماننا ليس أمراً مستغرباً ، في زماننا قد يأتيك الرجل من أقصى الدنيا ولا ترى عليه أثر السفر ، لا ترى عليه وهج الصحراء ولا لفح الرياح ولا الشمس ولا ترى عليه أثر التراب والغبار ، ما ترى عليه شيئاً من ذلك ، بينما في وقتهم المسافر يُعرف أنه شخص جاء مسافراً ؛ لأن الغبار يملأ الجسم ، والشمس أثرت في الجسم، والرياح أيضاً أثرت فيُعرف أن هذا الشخص مسافر .

فجاءهم شخص شديد بياض الثياب وشديد سواد الشعر ؛ المسافر لا يمكن أن يأتي في وقتهم بمثل هذه الهيئة ، قال : « لا يُرى عليه أثَرُ السَّفر، ولا يعرفه مِنَّا أحد » ؛ غريب جداً لا يرى عليه أثر السفر ، أي علامة من علامات السفر المعهودة لا ترى عليه ، وأيضاً ليس أحد يعرفه ، يعني ليس من أهل المدينة رجل جاء مسافراً ليس من أهل المدينة ، ومع هذا جاء بهذه الهيئة وبهذه الصفة .

وهنا يا إخوان يحسن بنا أن نذكر نعمة الله علينا بوسائل النقل الحديثة التي يسرها الله جل وعلا في هذا الزمان ، وإذا تأملت في هذه الوسائل مقارناً بالوسائل القديمة تجد أن الحاج لا يصل من بعض البلدان البعيدة إلا بعد الشهر والشهرين في معاناة وشدة ، وأهله يودعونه توديع من لا يعود ، فيه مخاطر ومخاوف ومهالك وأخطار متعددة ، والآن يركب في مركبٍ مريح وأجواءٍ مكيفة يمر بالعواصف والرياح ولا يشعر بها ولا يدري عنها إلى أن يصل المكان الذي يريد ، وفي الطريق كلما أراد أن يكلم أهله كلمهم ، وكلما أرادوا أن يكلموه يكلمونه ، "وصلنا إلى هنا ، أتينا إلى هنا ،أنا بخير أنا بعافية" ، بينما قديماً يغيب الشهر والشهرين والثلاثة ليحج ولا يدري أهله هل هو حيٌ أو ميت إلا إذا فاجأهم راجعاً ، والآن النعمة بسهولة المواصلات وتيسرها يحج من أقصى الدنيا في خلال سبعة أيام بما فيها أيام الحج ، بينما في وقتٍ من

الأوقات بعض المناطق ما يصل إلا بالشهرين أو الثلاثة ، يأتون من بعض الدول بالسفن الشراعية ثلاثة أشهر بعضهم في السفينة حتى يصل ، ثلاثة أشهر قادم وثلاثة أشهر راجع، وبعض كبار السن أدركوا هذه المعاناة وأخبروا عنها وتحدثوا عن أسفارهم ومعاناتهم .

ولهذا ينبغي على الإنسان أن يذكر نعمة الله سبحانه وتعالى عليه ، وأن يحرص على استعمال هذه النعم والوسائل في طاعة الله وفيما يقرب الله إلى الله سبحانه وتعالى ، الآن أنعم الله سبحانه وتعالى بالجوال في الجيب يحمله وهي نعمة عظيمة يطمئن على أهله ويطمئنون عليه ، ومع ذلك بعض الذين يحملون الجوالات ما يتقون الله في مساجد المسلمين ، ولا يراعون حرمة المساجد التي هي أحب الأماكن إلى الله ، ولا يراعون حرمة الصلاة ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢] ، ولا يرعون للمؤمن مكانته والمصلي صلاته وخشوعه ؛ ولهذا ترى دائماً في مساجد المسلمين الناس يصلون ثم تضرب الموسيقى هنا وهناك داخل المساجد، هل هذا فعل من يتقي الله ويخاف الله جل وعلا ويراقب الله ؟! تُضرب الموسيقى والمعازف المحرمة في مساجد المسلمين ؟! المسلمون في صلاتهم سجّد وركّع ثم تضرب الموسيقى! وتستمر تضرب في إيذاءٍ شديد وتفويتٍ للطاعة والعبادة والخشوع وأذيةٍ لعباد الله تبارك وتعالى في صلاتهم، فهل هؤلاء قدروا نعمة الله حق قدرها ؟

قل مثل هذا أيضاً في وسائل النقل يكرم الله سبحانه وتعالى عبده بسيارةٍ طيبةٍ جيدة يتنقل فيها ، ثم يمشي فيها إلى المحرمات! ويستمع فيها للمحرمات! هل رعى لنعمة الله حقها ؟ قال : ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ [النمل:١٩] .

فينبغي للعبد أن يذكر نعمة الله سبحانه وتعالى عليه ، وأن يشكر الله على النعمة ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧] ، وأن يحرص على استعمال النعمة في طاعة الله ؛ فهذا من شكرها ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣] ، مِن شكر الله على النعمة أن تستعمل النعمة في طاعة الله ، فإن استعمل الإنسان النعمة في معصية الله لم يشكر الله جل وعلا على نعمته .

قال : ((**حتّى جلس إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاسند رُكبَتَيْه إلى رُكبَتَيْه، ووضع كَفَّيْه على فخذيه**)) أي جلس جلسةَ أدبٍ ووقارٍ واحترام بين يدي الرسول الكريم ﷺ .

((**وقال: يا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإسلام، قال : أن تَشْهَدَ أَن لا إِلَهَ إلاَّ الله، وَأَنَّ مُحَمَدًا رَسُولُ الله، وَتُقِيمَ الصَلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اِسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلا**)) فذكر مباني الإسلام الخمسة وقد تقدمت معنا وتقدم أيضاً شيءٌ من الكلام على مضامينها ومعانيها .

فقال الرجل السائل الذي هو جبريل قال : ((**صَدَقْتَ. فعجبنا له يسألُهُ ويُصَدِّقُه!**)) هذا أيضاً أمرٌ عجيب ؛ تعجَّبوا من الأمر الأول وتعجَّبوا هنا من هذا الأمر؛ يسأل ويصدِّق ، والذي يصدق من هو؟ الأعلم ، الذي يصدق الأعلم ، ولهذا جاء في بعض الروايات : «كأنه أعلم منه» ، ((فعجبنا له يسأله ويُصَدِّقُه!) يجيب النبي عليه الصلاة والسلام على سؤاله ويقول : صدقت ، فتعجب الصحابة ﷺ من ذلك لأن هذه تدل على علم عند هذا السائل ، أما من لا علم له لا يستطيع أن يحكم أو يقول مثل هذا .

((**قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرْ،وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قال: صدقت**)) وهذه أركان الإيمان الستة ومضى أيضاً الكلام على معانيها .

((**قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّك تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهْ فَإِنَّهُ يَرَاكْ**)) ذكر هنا الإحسان وأن له ركن واحد وهو: أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّك تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهْ فَإِنَّهُ يَرَاكْ . ومضى أيضاً الكلام على هذه المرتبة. ويكون بهذا ذُكر في الحديث المراتب الثلاثة للدين ؛ الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان ، وأعلى هذه المراتب الإحسان وهي أعلى مراتب الدين وأرفعها ، ومن كان محسناً فهو مؤمنٌ مسلم ، ومن كان مؤمناً فهو مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً ولا كل مؤمن محسناً ؛ فهذه درجات متفاوتة تُعرف من خلال هذا الحديث العظيم .

وهذه الأمور الثلاثة -الإسلام والإيمان والإحسان- هي ديننا ؛ ولهذا ختم النبي عليه الصلاة والسلام الحديث بقوله : ((**هذا جِبْرِيلُ، أَتَاكُمُ يُعَلِمُكُمْ دِينَكُمْ**)) هذا ديننا ؛ ديننا مراتبٌ ثلاث: إسلامٌ وإيمانٌ وإحسان .

((قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعة)) وجاء في بعض الروايات : «متى الساعة ؟ متى وقت الساعة ؟» ، ((قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعة)) أي عن وقتها .

فقال عليه الصلاة والسلام : ((**مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**)) أي علم الساعة ليس عندي ولا عندك وإنما عند الله جل وعلا ، ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب:٦٣] ، فالساعة علمها عند رب العالمين، ولا يعلم قيامها إلا رب العالمين جل وعلا ، علمها عند الله .

قال : ((**مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**)) بهذا أجاب عليه الصلاة والسلام جبريل ، وجاءه في حديث آخر رجل وقال سائلاً النبي ﷺ : متى الساعة ؟ ماذا قال له ؟ قال : ((ماذا أعددت لها)) ؛ وهذا فيه أن السائل إذا سأل في أمر لا يعنيه أو لا يحسن به أن يسأل عنه فالمناسب أن يوجَّه إلى السؤال المناسب ، فإذا قال : متى الساعة ؟ يوجه إلى السؤال المناسب وهو الاستعداد للساعة هذا هو المهم ، المهم

الاستعداد ، الساعة آتية لا ريب فيها ، قادمة لا محالة ، فليس المهم أن تعرف متى الساعة المهم أن تستعد للساعة .

وبعضهم يضرب مثالاً لهذا تقريبياً للتوضيح يقول : لو كان أناس في بلدة وأقبل عليهم عدو يريد مداهمة البلد الذي هم فيه ، وجاءهم رجل قال : العدو وصل ، جاء العدو ، العدو آتي وصل قادم عليكم ؛ فانقسموا فريقين فريق أخذ يستعد ويتهيأ ويتجهز للملاقاة ، والآخرين جلسوا بدون عمل ؛ متى يصل ؟ وين المسافة ؟كم باقي؟ وجالسين بدون عمل!! فالسؤال الصحيح في مثل هذا المقام هو الاستعداد ، سواء أن تأتي الساعة غداً أو بعد غدٍ أو بعد سنة أو أقل أو أكثر المهم هو الاستعداد والتهيؤ ، أن يستعد ويتهيأ ، قال : ((ماذا أعددت لها ؟)) قال : ما أعددت لها من كبير صلاة ولا صيام ولا صدقة ولكني أحب الله ورسوله ، قال : ((أنت مع من أحببت)) ، قال أنس راوي الحديث : «ما فرحنا بشيء بعد فرحنا بالإسلام مثل فرحنا بهذا الحديث» ، قال أنس: «وأنا أحب رسول الله وأبا بكر وعمر وأرجو الله جل وعلا أن يجعلني معهم وإن لم أبلغ مثل عملهم» ؛ وهذا فيه فضيلة حب أنبياء الله وعباد الله والصحابة الكرام وأنه يبلغ بالإنسان مبلغاً عظيماً في الرفعة والخير ورضا الله سبحانه وتعالى عنه ، قال : ((أنت مع من أحببت)) .

قال : ((**مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ. قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا**)) الأمارات: العلامات ، أمارة: أي علامة ، أَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا: أي أخبرني عن علاماتها أشراطها ، ما هي العلامات – علامات الساعة – ؟

قال النبي عليه الصلاة والسلام : ((**أَنْ تَلِدَ الأمة رَبَّتَهَا**)) ربتها : أي سيدتها ، وهذا قيل في معناه أقوال منها: أن السراري تكثر في العرب حتى يوجد أن الأمة تلد سيدتها ، هذا من المعاني التي قيلت وقيل غير ذلك .

قال : ((وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ)) الحفاة : الذي ليس عندهم نعال للفقر والعوز والحاجة ، والعراة: يعني ليس عندهم لباس ، أو يكون عندهم لباس لا يكفي ولا يستر ولا يفي من شدة الفقر .

((وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ)) أي الفقراء ((رِعاءَ الشَّاءِ)) يعني الواحد منهم ليس معه إلا قليل من الأغنام يرعاها ويقتات هو وأهله وولده ، أغنام قليلة عند هذا الذي يملك

((أَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ)) أي يتنافسون أيهم أطول بناءً من الآخر ، هذا يبني أدوار وهذا يأتي بجنبه ويبني أعلى والآخر يبني أعلى ، يتنافسون من الأطول والأرفع بناءً،يتطاولون في البنيان.

قال : ((**فَمَضَى**)) أي ذهب ، هذا الرجل الغريب ذهب .

((**فَلَبِثنا مَلِيا**)) أي بقينا زمناً ووقتاً ، وجاء في بعض الروايات أن النبي ﷺ أمرهم بطلب الرجل بالبحث عنه فلم يجدوا له أثر .

قال : ((**فَلَبِثنا مَلِيّا، فقال: يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟**)) هل تدري من هذا الرجل الذي جاء وجلس وسأل تلك السؤالات ؟ أتدري من السائل ؟

(**قلت: الله ورسوله أعلَم، قال: هذا جِبْرِيلُ**)) السائل جبريل

((**هذا جِبْرِيلُ أَتَاكُمُ يُعَلِمُكُمْ أمر دِينَكُمْ**)) جاء يعلمكم الدين . فالحديث تعليم الدين ، هذا الحديث حديث تعليم الدين وقد جُمع فيه الدين بمراتبه وذكرت الأركان لكل مرتبة وبينت أحسن بيان ؛ فهو حديثٌ مشتملٌ على بيان أمر الدين ، وهو جامع ومن أجمع الأحاديث في هذا الباب ، ولهذا كان بعض أهل العلم يطلق على هذا الحديث «أمّ السنة» نظيراً للفاتحة في القرآن يقال لها «أم القرآن»؛ وذلك لأنها أجملت ما فُصِّل في القرآن ، وهذا الحديث أجمل ما فُصّل في السنة ، ولهذا أطلق عليه بعض أهل السنة «أم السنة» لأنه حديث جامع جمع فيه النبي ﷺ الدين . والحديث ينبغي أن يُعنى به كل مسلم حفظاً ومذاكرةً ومراجعة فهو حديثٌ عظيمٌ جامعٌ نافع .

ثم بعد ذلك دخل المصنف رحمه الله تعالى في بيان الأصل الثالث في معرفة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ولعلنا نكتفي بهذا القدر . والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الدرس الخامس عشر

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ، أما بعد :

قال شيخ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

الأصلُ الثالثُ: معرفةُ نبيكُمْ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ وهو محمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المطلبِ بنِ هاشمٍ، وهاشمُ مِنْ قريشٍ، وقريشٌ مِنَ العربِ، والعربُ مِنْ ذرّيّةِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ عليْهِ وعلى نبيّنا أفضلُ الصَّلاةِ والسّلامِ، وله مِنَ العُمْرِ ثلاثٌ وسِتُّونَ سنةً؛ منها أربعون قبل النُّبُوَّةِ، وثلاثٌ وعشرون نبيّا ورسولا، نُبِّئَ بِ «اقرأ» وأُرْسِلَ بـ«المدّثر»، وبلدُهُ مكّةَ وهاجر إلى المدينة ، بعثَهُ اللهُ بالنَّذَارَةِ عنِ الشّرِكِ، ويدعُو إلى التَّوحيدِ، والدليلُ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾[المدثر:١-٧] ومعنى ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾: يُنْذِرُ عنِ الشّرِكِ ويدعُو إلى التَّوحيدِ، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: عَظِّمْهُ بالتَّوحيدِ، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: طَهِّرْ أعمالَكَ عنَ الشِّركِ، ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ الرُّجْزُ: الأصنامُ، وهجرُها تَرْكُها والبراءَة منها وأهلِها . أخذَ على هٰذا عشْرَ سِنينَ يدعُو إلى التوحيدِ، وبعدَ العشْرِ عُرِجَ به إلى السماءِ وفُرِضَتْ عليه الصلواتُ الخمسُ، وصلَّى في مكّةَ ثلاثَ سنينَ، وبعدَهَا أُمِرَ بالهجرةِ إلى المدينةِ.

****

قال المؤلف رحمه الله تعالى : ((**الأصلُ الثالثُ: معرفةُ نبيكُمْ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**)) ؛ هذا الأصل الثالث من أصول الإيمان ، وعرفنا أن أصول الإيمان ثلاثة: معرفة العبد ربه ودينه ونبيه مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم .

وهذا الأصل له أهمية عظمى ومكانة عليا ؛ لأن معرفة العبد لله ومعرفة العبد بدين الله جل وعلا لا تكون ولا تتم ولا تتهيأ إلا من طريق الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولهذا من لم يعرف الرسول ﷺ لا يعرف الله ولا يعرف دينه ، لأنه عليه الصلاة والسلام واسطةٌ بين الله جل وعلا وبين عباده في إبلاغ دينه ، وهكذا كل الرسل وسائط بين الله وبين العباد في إبلاغ الدين ؛ يتنزل عليهم الوحي من الله جل وعلا ويبلغون ، والله تعالى يقول : ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾[النور:٥٤] ، فالرسل واسطة في بلاغ الدين ، لأن حكمة الله

جل وعلا لما خلق الخلق ليعبدوه اقتضت أن لا ينزل الوحي على الناس أجمعين ، أن لا ينزل الملائكة بالوحي على الناس أجمعين ، وإنما اقتضت حكمة الله عز وجل أن يصطفي جل وعلا من الناس رسلاً ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ [الحج:٧٥] ؛ فهو جل وعلا يصطفي من الناس صفوتهم وخيارهم ليكونوا رسلاً بينه وبين عباده في إبلاغ دينه يبلغون دين الله ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة:٦٧] مهمتهم هذه البلاغ إبلاغ دين الله ؛ وهذه مهمة المرسَل ، المرسَل : هو من يقوم بإبلاغ ما أرسله به مرسِله .

فالرسل يبلغون دين الله وهم واسطة بين الله جل وعلا وبين العباد في إبلاغ الدين ، ولهذا ليس هناك سبيل لمعرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأوامره ونواهيه ومعرفة دينه وشرعه إلا من طريق الرسل ، والرسل سبيلهم في هذه المعرفة الوحي ، قال الله عز وجل لرسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى:٥٢] فيُنزل الله سبحانه وتعالى وحيه على أنبيائه ورسله ثم هم يبلغون وحي الله وتنزيله إلى الناس ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥] فالرسل هذه مهمتهم ؛ وسائط بين الله وبين العباد في إبلاغ دين الله جل وعلا .

وهذا يبين لنا أهمية معرفة الرسول وأن من لم يعرف الرسول عليه الصلاة والسلام لا يعرف ربه ولا يعرف دينه ، ولا يعرف كيف ينال رضا ربه ، وكيف يفوز بثوابه ، وكيف ينجو من سخطه ومن عقابه ، لا يعرف ذلك إلا من طريق الرسل عليهم صلوات الله وسلامه ؛ فالطريق إلى الهدى والحق مسدود إلا من طريق الرسول ﷺ . وإذاً فمعرفة الرسول ﷺ أصل من أصول الإيمان وأساسٌ من أسس الدين ، بمعنى أن الدين لا يمكن أن يقوم إلا بمعرفة الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه هو واسطة بين الله وبين العباد في معرفة دين الله وأمره ونهيه وأسمائه وصفاته ؛ هذه كلها إنما تُعرف من طريق الرسول ﷺ .

ولهذا فإن حاجة الناس وضرورتهم إلى المعرفة بالرسل أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب والماء والهواء وغير ذلك؛ لأن إذا انحبس عن العبد الطعام والشراب فإنه يموت ويفارق هذه الحياة الدنيا ، لكن إذا لم يفُز بالوحي ولم يكن من أهل إتباع الوحي فإنه يبوء بعذاب الله وسخطه في الدنيا والآخرة . فحاجة العبد وضرورته إلى معرفة الرسل ومعرفة ما جاءوا به وإتباع سبيلهم أشد الحاجات وأعظم الضرورات ؛ ولهذا قال

رحمه الله : ((ال**أصلُ الثالثُ**)) ، وسبق أيضاً أن أشرت إلى جملة من الأحاديث الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم التي جمعت هذه الأصول الثلاثة ؛ معرفة الله ومعرفة دينه ومعرفة نبيه ﷺ .

والناس أجمعين يوم يقومون بين يدي رب العالمين يوم القيامة يُسألون عن الرسل ؛ فثمة سؤال يوجَّه للناس أجمعين يوم القيامة : ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥] ، كما أنهم يسألون أيضاً : «ماذا كنتم تعبدون» الأول قوله: «ماذا كنتم تعبدون» سؤال عن الإخلاص والتوحيد ، وقوله: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ سؤالٌ عن الإقتداء والمتابعة وسلوك سبيل الأنبياء والمرسلين ؛ لأنه لا يُعبد إلا الله ، ولا يُعبد الله إلا بما جاء عن رسله عليهم صلوات الله وسلامه .

قال : ((**الأصلُ الثالثُ: معرفةُ نبيكُمْ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**)) ؛ وهذه المعرفة تتناول جوانب حياته عليه الصلاة والسلام ؛ بمعرفة نسبه وحسبه الشريف صلوات الله وسلامه عليه ، ومعرفة نشأته ، ومعرفة سيرته ومتى نبئ ومتى أرسل ومتى هاجر ، ومعرفة جهاده في سبيل الله ، وأعظم ما ينبغي أن يُعرف في هذا الباب معرفة ما يدعو إليه وما ينهى عنه وما يأمر به ، وأعظم ما أمر به عليه الصلاة والسلام توحيد الله ، وأعظم ما نهى عنه صلوات الله وسلامه عليه الشرك بالله عز وجل .

والمصنف رحمه الله ذكر هنا خلاصةً نافعة وزبداً مفيد في باب معرفة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ؛ بدأ أولاً بذكر نسبه ﷺ قال : ((**وهو مُحَمَّد**)) ؛ وهو عليه الصلاة والسلام له أسماء كثيرة وكل أسمائه دالة على معاني وعلى مسميات وعلى صفاتٍ فيه عليه الصلاة والسلام ، و«مُحَمَّد» هذا الاسم يدل على ما كان عليه ﷺ من الحمد لله جل وعلا وما كان عليه أيضاً من صفات الخير والوفاء والصدق والأمانة وغير ذلك صلوات الله وسلامه عليه . وقد ذكره الله جل وعلا بهذا الاسم في مواضع من القرآن ، مثل قوله جل وعلا : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩] وقوله : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب:٤٠] وآيات في القرآن يذكر فيها نبيه عليه الصلاة والسلام بهذا الاسم العظيم .

قال : ((**وهو محمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المطلبِ بنِ هاشمٍ، وهاشمُ مِنْ قريشٍ، وقريشٌ مِنَ العربِ، والعربُ مِنْ ذرّيّةِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ عليهِ وعلى نبيّنا أفضلُ الصَّلاةِ والسّلامِ**)) وقد اصطفاه الله جل وعلا من خير الناس حسباً ونسباً ، والأنبياء يبعثون في أشرف الناس حسباً ونسباً وأعلاهم مكانةً وصفاتاً في الخير والنبل ، وقد جاء في صحيح مسلم عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((إن الله اصطفى بني إسماعيل من العرب)) إسماعيل أي ابن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام ، قال : ((إن الله اصطفى بني إسماعيل من العرب ، واصطفى من بني إسماعيل كنانة ، واصطفى من كنانة قريشاً ، واصطفى

من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم؛ فأنا خيارٌ من خيار)) أي من خيار الناس نسباً وحسباً وأصلاً صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

وقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام أحاديث في هذا المعنى عديدة تبين فضل نسبه وحسبه عليه الصلاة والسلام ، وأيضاً ما تميز به ﷺ من النشأةِ المباركة ؛ بأن نشأ على الصدق وعلى الأمانة ، وعلى البغض للأصنام والأوثان والأزلام وغير ذلك ، وعلى بقائه على سلامة الفطرة ولم يدخل في شيءٍ من دين قومه ﷺ ، قد جاء عن الإمام أحمد أنه قال : «من زعم أن مُحَمَّداً ﷺ كان على شيءٍ من دين قومه فقد أعظم على الله الفرية»؛ فهو عليه الصلاة والسلام لم يكن على شيءٍ من دين قومه . وقول الله سبحانه وتعالى في سورة الضحى : ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى:٧] ، ليس المراد بقوله «ضالاً» أي على دين قومك كما قد يسيء البعض فهم هذه الآية، وإنما المراد «ضالاً» أي عن تفاصيل الشرائع وتفاصيل الأحكام ، فلم يعرف عليه الصلاة والسلام منها شيئاً إلا بعد أن نزل عليه وحي الله جل وعلا ، وهذا يدل عليه قول الله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

قال : ((**وله مِنَ العُمْرِ: ثلاثٌ وسِتُّونَ سنةً**)) أي عمره عليه الصلاة والسلام ومدة حياته هو هذا ؛ ثلاث وستون سنة ، عاش ﷺ هذه المدة ثلاث وستون سنة ، وأخبر أن أعمار أمته ما بين الستين إلى السبعين، وكان هو عليه الصلاة والسلام ثلاث وستين سنة صلوات الله وسلامه عليه .

ثلاث وستون سنة؛ أربعون منها قبل النبوة كما قال المصنف رحمه الله : ((**منها أربعون قبل النُّبُوَّةِ**)) فهو عليه الصلاة والسلام لم ينبأ إلا بعد أن بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ؛ حينئذ نبئ ، ومعنى ذلك أن أربع وثلاثين سنة من حياته وعمره صلوات الله وسلامه عليه كل ذلكم كان قبل النبوة ، أربعين سنة كلها كانت قبل النبوة قبل أن ينبأ ، وهو عليه الصلاة والسلام عاشها عيشاً كريماً متصفاً بالأخلاق الفاضلة والآداب الرفيعة ، مشهوراً في قومه بالصدق والأمانة والبعد عن جميع صفات السوء وأخلاق السوء وتعاملات السوء ، بعيداً عن ذلك عليه الصلاة والسلام كله مع أنه نشأ في مجتمع جاهلي تكثر فيه الضلالات وخيَّم فيه الباطل وتنوعت فيه في الناس الضلالات والأهواء والباطل! لكن ربه سبحانه وتعالى حماه وصانه ، ولم يدخل في حياته في شيءٍ من دين قومه صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((**منها أربعون قبل النُّبُوَّةِ، وثلاثٌ وعشرون نبيّا رسولا**))؛ ثلاثٌ وعشرون أي من عمره كان عليه الصلاة والسلام نبياً رسولاً ، وهذه الثلاث والعشرون مقسومة بين مكة والمدينة ؛ ثلاث عشرة سنة في مكة ، وعشر سنوات في المدينة ، فهذه حياته أو تقسيم حياته ؛ أربعون قبل النبوة ، وثلاث وعشرون سنة نبياً

ورسولاً ، ومدة رسالته عليه الصلاة والسلام منذ أرسل إلى أن مات مقسومة بين مكة والمدينة ، مكث في مكة ثلاثة عشرة سنة وفي المدينة عشر سنوات .

قال : ((نُبِّئَ بِ «اقرأ» وأُرْسِلَ بـ«المدّثر»)) ؛ نُبِّئَ بِ «اقرأ»: أي أول ما نزل عليه الوحي وبدأ عليه الوحي بأن نزل عليه صدر سورة «أقرأ» ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق:١-٤] ؛ فكان عليه الصلاة والسلام في الغار يتحنث فجاء جبريل ونزل عليه وقال : أقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، هو عليه الصلاة والسالم نبيٌ أمي ، نشأ عليه الصلاة والسلام أمياً لا يقرأ ولا يكتب ،قال : أقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، قال : أقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، قال : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ فنزلت عليه هذه الآيات وبها نبئ ، و«نبئ»: أي صار نبياً ؛ من النبأ الذي هو الخبر ﴿قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم:٣] أي من أخبرك وأعلمك وأطلعك؟ فهو عليه الصلاة والسلام نبئ بـ «أقرأ»: أي أول ما بدأه الوحي وأصبح نبياً بأن نزلت عليه هذه الآيات ، وهو في هذه اللحظات نبئ وجاءه الوحي ولكن لم يؤمر بالبلاغ ، لم يُبعث إلى قومه بعد وإنما نبئ وتنزل عليه وحي الله والتقى بملك الله جبريل عليه السلام لكنه لم يؤمر بالبلاغ ، فرجع إلى بيته عليه الصلاة والسلام وهو يرعد ويقول لزوجه خديجة رضي الله عنها : ((دثريني)) أي غطيني بالدثار، فغطته وذكرت له ما هو عليه من الأخلاق والسجايا والآداب والطباع الكريمة وقالت : «لا يضيعك الله ولا يخيبك الله» .

فنبئ بهذه الآيات «أقرأ» ، وأرسل بالمدثر كما قال المصنف : ((وأُرْسِلَ بـ«المدّثر»)) أي بسورة المدثر ، وسيأتي عند المصنف الآيات مع شرحها ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ حينها أُمر بالنذارة وبعث إلى قومه . وعندما نزلت عليه أقرأ أنقطع الوحي ولبث وقتاً ثم نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ وبعدها تتابع عليه صلوات الله وسلامه عليه الوحي .

قال : **((وبلدُهُ مكّةَ وهاجر إلى المدينة))**؛ بلدُهُ: أي التي وُلد فيها ونشأ فيها حياته هي مكة ، فهو عليه الصلاة والسلام ولد في مكة ونشأ في مكة ، أمضى حياته ونشأته في مكة ؛ اللهم إلا الوقت الذي كان عند المرضعة السعدية في البريّة وإلا حياته أمضاها عليه الصلاة والسلام منذ ولد في مكة .

قال : **((وبلدُهُ مكّةَ وهاجر إلى المدينة))** عرفنا أن هجرته إلى المدينة بعد ثلاث وخمسين سنة من عمره حيث عاش في المدينة عشر سنوات صلوات الله وسلامه عليه ، قال : ((وهاجر إلى المدينة)) وسيأتي كلام المصنف رحمه الله تعالى عن الهجرة وما يتعلق بها .

قال : ((**بعثَهُ اللهُ بالنَّذَارَةِ عنِ الشِّرك، ويدعُو إلى التَّوحيدِ**)) ؛ بعثَهُ اللهُ بالنَّذَارَةِ عنِ الشِّرْكِ: أي بإنذار قومه وتحذيرهم من الشرك بالله الذي هو أعظم الذنوب وأشد الموبقات وأكبر الكبائر وأعظم الجرائم والآثام ، فبُعث بالنذارة من الشرك ، وبالدعوة إلى التوحيد؛ وهو أول شيء بدأ به قومه عليه الصلاة والسلام ، فقومه لم يسمعوا منه في بدأ دعوته إلا الدعوة إلى التوحيد ، بل مكث عليه الصلاة والسلام منذ بُعث عشر سنوات وهو لا يدعو إلا إلى التوحيد ، عشر سنوات لا يسمعون منه إلا التحذير من الشرك والدعوة إلى التوحيد ، وهكذا شأن الأنبياء والرسل قبله عليه الصلاة والسلام أول ما يقرع سمع أقوامهم منهم الدعوة إلى توحيد الله ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ، ونبينا عليه الصلاة والسلام أولُ شيءٍ سمعه قومه منه : ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)) ، والقوم يعرفون معنى «لا إله إلا الله» وأنها تعني البراءة من الأصنام والأوثان وإخلاص العبادة لله ل وعلا ، ولهذا لما قال لهم ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)) قالوا : ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[ص:٥] ، وأيضاً قال تعالى : ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾[ص:٦] ، عرفوا أن «لا إله إلا الله» تعني نبذ الآلهة وبطلان عبادتها وأن العبادة حقٌ لله سبحانه وتعالى ، عرفوا معنى هذه الكلمة ومدلولها . فهو عليه الصلاة والسلام أولُ ما بدأَ قومه به من الدعوة : الدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك ؛ ينذرهم من الشرك ومن عبادةِ الأصنام ويبين لهم أنها باطلة ، وقام بهذا الأمر أتم قيام عليه الصلاة والسلام ؛ ينذر قومه من الشرك ومن عبادة الأصنام ، قال الله جل وعلا : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[الحجر:٩٤] فكان هو هذا شأنه .

ولك هنا أن تتأمل في شدة هذا الأمر ؛ يعني هو في مجتمع الشرك فيه مخيم ، والضلال مغطي المجتمع بأسره، والناس في جاهلية جهلاء وضلالة عمياء ، قال عليه الصلاة والسلام : ((إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجمهم وعربهم إلا بقايا من أهل الكتاب)) ، والجميع كلهم خَيّم عليهم الضلال والباطل أشد تخييم ، فبُعث عليه الصلاة والسلام في هؤلاء وحيداً ، وبُعث في شيءٍ مُصادم لعقائدهم، لنحَلهم ، لأهوائهم ، لطرائقهم ، لعقائد آبائهم مصادم تماماً ؛ وهذا من أصعب ما يكون ، يأتي إلى المجتمع مصادماً لكل ما عليه المجتمع ، وكل ما نشأ عليه المجتمع وعلى عقائد الآباء والأجداد ، ولما أمره الله سبحانه وتعالى مضى بكل ثباتٍ وعزيمة مبلغاً يغشى أنديتهم وتجمعاتهم ويناديهم بأسمائهم وبعشائرهم وقبائلهم؛ ((إني رسول الله إليكم جميعا)) ، ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)) ويبدي ويعيد ، مضى سنوات عليه الصلاة والسلام في الدعوة إلى توحيد الله . سفّهه قومه وجهّلوه ، ورموه بالجنون ، ورموه بالكهانة والسحر ، ورموه بكل عظيمة ، وحذَّروا منه وبثّوا حوله الدعايات المغرضة ، وآذوه عليه الصلاة والسلام الأذى الشديد ، وكان الناس في شوارع مكة

يهتفون بكل قادم : إن مُحَمَّداً مجنون، إن مُحَمَّداً كذا، إن مُحَمَّداً كذا ؛ دعاية مكثفة ضده عليه الصلاة والسلام وضد دعوته وهو صابر كما صبر أولو العزم من الرسل ، داعي إلى الله : ((يا قوم ، يا قوم ، يا قوم)) يدعو ويكرر ويبدي ويعيد ، يؤذى فيصبر ، وأشتد أذاهم عليه وهو صابر ولم يثنه ذلك عن المضي في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ؛ إلى أن أخرجه قومه من بلده وتمالؤا على قتله عليه الصلاة والسلام ودبَّروا مؤامرةً لقتله في فراشه ليلاً ، وفي ذاك الوقت هاجر عليه الصلاة والسلام وخرج من مكة ، خرج من مكة ليس برغبةٍ منه بالخروج عن هذا البلد ولكن لأن قومه أشتد أذاهم عليه في هذا البلد وتمالؤا على قتله والإجهاز عليه والقضاء عليه .

ثم مع هذا العداء الشديد والكيد والتآمر على قتله جعل علياً ﷺ على فراشه ومضى وخرج متسللاً ليلا مع أبي بكر الصديق صاحب النبي ﷺ ، وأمر علياً أن يعيد الأمانات ، كان رجلاً معروفاً بالأمانة، وكان قومه إن خافوا على شيء لا يجدون أحداً مثله يأتمنونه ؛ فكانوا يضعون عنده الأمانات والودائع معروف عندهم بالأمين ، فأمر علي أن يعيد الأمانات إلى أصحابها ، ما قال هؤلاء عادوني وآذوني وأخرجوني من بلدي ولا يستحقون من يحفظ لهم أمانتهم وأنا أوذيت ، لم يتأول لنفسه شيئاً ؛ أعاد الأمانات كاملة إلى أصحابها وخرج عليه الصلاة والسلام مهاجراً إلى المدينة .

قال : ((**وبلدُهُ مكّةَ وهاجر إلى المدينة**)) مكة مكث فيها بعد أن أُرسل ثلاثة عشر سنة ، والمدينة عشر سنوات إلى أن مات ، ثم مات عليه الصلاة والسلام ودفن بالمدينة .

قال : ((**بعثَهُ اللهُ بالنَّذارَةِ عنِ الشِّركِ، ويدعُو إلى التَّوحيدِ، والدليلُ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ(١) قُمْ فَأَنذِرْ(٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ(٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ(٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ(٥) وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ(٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾**)) هذه الآيات بداية الرسالة وبداية البعثة ، وهي تحمل في مضمونها زبدة الرسالات وخلاصة دعوة النبيين ، فهي تحمل قاعدة الدين وأساسه ، لأنه أول ما بُعث وأُمر بالنذارة ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أول ما بُعث ونزل عليه هذه الكلمات ؛ فهذه الكلمات تحمل في معانيها وطياتها ومضامينها قاعدة الدين وأصله وأساسه وزبدة دعوة النبيين والمرسلين ؛ ولهذا اعتنى الشيخ رحمه الله ببيان معاني هذه الآيات ومضامينها ومدلولها باختصار بما يحتمله هذا المختصر .

قال : ((**ومعنى ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ يُنْذِرُ عنِ الشِّركِ ويدعُو إلى التَّوحيدِ**)) ؛ ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أي أنذر قومك ، من ماذا ؟ قومه على الشرك على الجاهلية على عبادة الأصنام ، مكة امتلأت بالأصنام ، والبيت الحرام امتلأ أصناماً في داخله وحوله ، امتلأ بالأصنام حتى كسرها عليه الصلاة والسلام بيده يوم فتح مكة ﴿وَقُلْ جَاءَ

﴿الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١] ، وإلا كانت الأصنام كثيرة محيطة بالبيت من كل جانب؛ تُعبد ويُذبح لها وينذر وتُصرف لها أنواع العبادات ، فأول ما نزل عليه بالبعثة والرسالة : ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ أي: أنذر قومك من الشرك وأمرهم بالتوحيد ، قال الله تعالى : ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [النساء:١٦٥] ؛ مبشرين بالجنة لمن وحَّد الله ومنذرين من النار لمن أشرك بالله سبحانه وتعالى .

قال : ((﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ **أي: عَظِّمْهُ بالتَّوحيدِ**)) ولهذا هذه الكلمة العظيمة التي تتردد على ألسنة المسلمين في صلاتهم وفي أذكارهم «الله أكبر» هذه كلمة تعظيم لله ؛ تعظيم لله بتوحيده وإجلاله سبحانه وتعالى وقدره حق قدره ، ولهذا المشرك لا يكبر الله ، الذي يعبد مع الله غيره لا يكبر الله ، قال الله عز وجل : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧] ، المشرك الذي يدعو الوثن ويعبد الصنم ويتعلق بغير الله هو لا يكبر الله {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلهِ وَقَارًا} أي عظمةً ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح:١٣-١٤] ، فالمشرك الذي يعبد مع الله غيره لا يكبِّر الله، فتكبير الله لا يكون إلا بتوحيده وإخلاص الدين له ، أما المشرك ليس مكبراً ولا معظماً لله ولا يقدُر ربه سبحانه وتعالى حق قدره .

قال : ((﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ **أي: عَظِّمْهُ بالتَّوحيدِ**)) أي عظم ربك بالتَّوحيدِ .

((﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ **أي: طَهِّرْ أعمالَكَ عنَ الشِّركِ**)) بالحذر منه والتحذير منه وإنذار القوم من الوقوع فيه ؛ وهذا فيه أن أعظم أمرٍ ينبغي على العبد أن يتطهر وأن يتنزه عنه وأن يجانبه وأن يبتعد عنه الشرك بالله سبحانه وتعالى . والشرك أنجس شيء وأوسخه ، والمؤمن مطالب بأن يتنزه عن الشرك وأن يتطهر وأن يبتعد عنه ، قال : (﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: طَهِّرْ أعمالَكَ عنَ الشِّركِ .

((﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ **الرُّجْزُ :الأصنامُ**)) ؛ ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ أي أهجر الأصنام ، وكيف يكون هجرها ؟ قال المصنف رحمه الله : ((**وهجرُها: تَرْكُها والبراءَة منها وأهلِها**)) هذا هو هجرها الذي أمر به في هذه الآية ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ أي تركها والبراءة منها ومن أهلها مثل ما قال الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم الخليل ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم:٤٨] وقال : ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم:٤٩] ، فلا يتم توحيد العبد حتى يبرأ من الكفر وأهل الكفر ويباعدهم وينابذهم ، وهذا واضح في

الآية ودلالتها عليه ، لا يتم للإنسان التوحيد حتى يهجر الأصنام وأهلها ويجانبهم ويباعدهم ويحاذر منهم ويحذِّر . قال: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ الرُّجْزُ: الأصنامُ، وهجرُها: تَرْكُها والبراءَة منها وأهلِها.

قال : ((**أخذَ على هٰذا عشْرَ سِنينَ يدعُو إلى التوحيدِ**)) يعني منذ نزلت عليه هذه الآيات ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ مضى عشر سنوات يدعو إلى التوحيد ، عشر سنوات كاملات لم يأمر بصلاة ولم يأمر بصيام ولم يأمر بحج ولم يأمر بأيٍّ من العبادات ، عشر سنوات خالصة يأمر بالتوحيد ويحذر من الشرك ، ليس يدعو قومه إلا لـ «لا إله إلا الله» ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)) ، يحذرهم من عبادة الأصنام يدعوهم لترك عبادة الأصنام والبعد عنها ، مضى على ذلك عشر سنوات ، عشرُ سنين يدعو إلى توحيد الله عز وجل أي قبل فرض الصلاة ، الصلاة نعرف مكانتها من الدين وأنها عماد الدين وأعظم أركانه بعد الشهادتين ، الصلاة لم تُفرض من أول الأمر بل بقي عليه الصلاة والسلام منذ أُرسل عشر سنوات لم تفرض الصلاة فضلاً عن بقية الفرائض التي هي غير الصلاة .

قال : ((**أخذَ على هٰذا عشْرَ سِنينَ يدعُو إلى التوحيدِ، وبعدَ العشْرِ**)) بعد أن أتم عشر سنوات داعياً إلى توحيد الله ((**عُرِجَ به إلى السماءِ**)) أُسري بجسده عليه الصلاة والسلام وروحه جميعاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء:١] ثم عرج به عليه الصلاة والسلام إلى السماء ، إسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليلاً ثم عروج إلى السماء ، عروجٌ إلى السماء في ليلة واحدة وجاء الصباح عند قومه؛ ما المسافات التي قطعها؟ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهذه أقصر مسافة قطعها في رحلته تلك ، ثم من المسجد الأقصى عُرج به إلى السماء ، من الأرض إلى السماء الدنيا إلى السماء التي تليها إلى السماء التي تليها حتى بلغ سدرةِ المنتهى عليه الصلاة والسلام ، وقد جاء في بعض الأحاديث والآثار «أن بين الأرض والسماء خمسمائة سنة ، وثخن كل سماء خمسمائة سنة ، وبين كل سماء وسماء خمسمائة سنة» ، كل هذه المسافات قطعها عليه الصلاة ولسلام في ليلة واحدة! حتى بلغ سدرة المنتهى فأوحى إليه ربه جل وعلا ما أوحى ، وسمع وحي الله من الله ، وسمع كلام الله من الله ، وأمره بالصلاة خمسين صلاة في اليوم والليلة ، فرضها عليه وعلى أمته خمسين صلاة في اليوم والليلة ، ونزل عليه الصلاة والسلام بهذه الفريضة ، خمسين صلاة في اليوم والليلة نزل بها ، فلقيه موسى عليه السلام وسأله فأخبره ، قال : «أمتك لا تطيق هذا، سل الله التخفيف» فرجع وطلب من ربه التخفيف وتردد بين موسى وبين الله كما جاء في الحديث إلى أن خُففت إلى خمس صلوات، وهي خمس بالعمل وخمسون بالأجر ؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها ، فنزل عليه

الصلاة والسلام وفرضت عليه الصلوات الخمس وعلى أمته ونزل بهذه الفريضة ؛ هذا بعد عشر سنوات من البعثة ، يعني كان عمره عليه الصلاة والسلام خمسين سنة ، أتم الخمسين حينئذ فرضت الصلاة ، ونزل عليه الصلاة والسلام بهذه الفريضة ، وكذّبه قومه وسخروا منه وله معهم في هذا وقائع معروفة في كتب السيرة حول الإسراء والمعراج وتكذيب قومه ، وأصبحوا يسخرون منه وجاءوا إلى أبي بكر ﷺ وقالوا إنه يزعم كذا -يريدون تنفيره منه- ، قال : «إن كان قال ذلك فقد صدق» صديق الأمة ﷺ وأرضاه .

فالشاهد أنه نزل بذلك ، ومن عجائب حال بعض أمته أن الصلاة التي هي مفروضة عليهم في اليوم والليلة خمس صلوات لا يهتمون بها ولا يواظبون عليها، والاحتفال بليلة الإسراء والمعراج الذي هو ليس مشروع أصلاً ولا مأمور به ولا دليل عليه لا يفوتونه أبداً!! فالفرض الواجب لا يُعتنى به والأمر المحدث لا يفوّت ولا يضيَّع!! وهذا من سوء الفهم وعدم البصيرة ؛ الصلاة التي هي فرض ، يعني نحن من أعظم ما نستفيده من الإسراء والمعراج فريضة الصلاة والمحافظة عليها وأنها أهم الدين ، يعني الحج فُرض عليه وهو في الأرض ، الصيام وهو في الأرض ، بقية الفرائض وهو في الأرض إلا الصلاة خصّت بأن عرج به عليه الصلاة والسلام إلى السماء السابعة إلى سدرة المنتهى وسمع الأمر والفرض بالصلاة من الله بدون واسطة ، سمع كلام الله من الله ونزل بها ، ثم يأتي بعض الناس ويضيّعون الصلاة المفروضة!! حتى ليلة الاحتفال بعضهم يحتفل إلى الصباح وينام عن صلاة الفجر ، فالفرض يضيّع والأمر المحدَّث يواظب عليه ولا يضيّع ولا يفوّت! فهل هذا هو الإتباع ؟ وهل هو هذا علامة صدق المحبة للرسول عليه الصلاة والسلام ؟!!

ولهذا يحتاج كثير من الناس إلى أن يعيد النظر في طريقة دراسته للسيرة وطريقة استفادته من هدي النبي ﷺ ، وإلا يحال الدين إلى مواسم للاحتفالات ، هذا يحتفل بالمولد وهذا يحتفل بالإسراء والمعراج وهذا يحتفل بالهجرة وهذا يحتفل .. والفرائض تضيّع والواجبات لا يُهتم بها ، ويصبح الأمر مواسم للاحتفالات . وإذا نظرنا في تاريخ الصحابة والتابعين لهم بإحسان لا نرى فيهم مثل هذه الاحتفالات ؛ وهم أشد الناس حباً للنبي عليه الصلاة والسلام وحرصاً على إتباع هديه والسير على منهاجه صلوات الله وسلامه عليه ، لكنّا نرى فيهم مسارعةً للخيرات ومسابقةً إلى الفرائض والطاعات ومحافظةً على الرغائب والمستحبات ؛ هكذا مضت حياتهم بحسن إتباع وحسن ائتساء وبُعد عن البدع والأهواء .

قال رحمه الله تعالى : ((**وبعدَ العشْرِ عُرِجَ به إلى السماءِ وفُرِضَتْ عليه الصلواتُ الخمسُ، وصلَّى في مكّةَ ثلاثَ سنينَ**)) أي صلى الصلاة المكتوبة المفروضة ثلاثَ سنينَ ((**وبعدَها أُمِرَ بالهجرةِ إلى المدينةِ**)) يعني بعد أن أمضى ثلاثة عشر سنة بعد الرسالة أُمر بالهجرة إلى المدينة ؛ لأنه أوذي في مكة أشد الأذى ، حتى في صلاته وهو عليه الصلاة والسلام يصلي ساجد لله يأتي بعضهم بسلى الناقة ويضعه على ظهره عليه الصلاة والسلام ، أوذي أشد الأذى وتمالؤا على قتله كما تقدم فأذِن الله عز وجل له بالهجرة إلى المدينة .

قال رحمه الله :

والهجرةُ: الانتقالُ مِنْ بلدِ الشِّركِ إلى بلدِ الإسلامِ، والهجرةُ فَرِيضةٌ على هٰذه الأمّةِ مِنْ بَلَدِ الشّركِ إلى بلدِ الإسلامِ، وهي باقيةٌ إلى أنْ تقومَ الساعةُ، والدليلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[النساء:٩٧-٩٩]، **وقوله تعالى:** ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾[العنكبوت:٥٦]، **قالَ البَغَوِيُّ رحِمَهُ اللهُ: «سببُ نزولِ هٰذه الآيةِ في المسلمين الذين بمكَّةَ لم يهاجِرُوا؛ ناداهُم اللهُ باسمِ الإيمانِ». والدليلُ على الهجرةِ من السُّنَّةِ قولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لا تَنْقَطِعُ الهجرَةُ حتَّى تَنْقَطِعَ التَّوبةُ ، ولا تنقطعُ التّوبةُ حتّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا))** .

****

ثم قال رحمه الله تعالى : ((**والهجرةُ: الانتقالُ مِنْ بلدِ الشِّركِ إلى بلدِ الإسلام**))؛ لما ذكر هجرة النبي عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة عرَّف الهجرة قال : «والهجرةُ: الانتقالُ مِنْ بلدِ الشِّركِ إلى بلدِ الإسلام»، وأن تكون هذه الهجرة يُبتغى بها رضا الله عز وجل وإتباع رسوله ، ((فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأةٍ ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)) ، يعني قد تكون هجرة الإنسان للتجارة لدنيا يصيبها ، أو تكون هجرته للنكاح ، إما أن يهاجر متاجراً أو يهاجر خاطباً ، لكن الهجرة التي تدخل في عمل الإنسان الصالح ويثاب عليها وهو مأمور بها: الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ليُخلِص الدين لله وليحقق الإتباع للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام .

قال : ((**والهجرةُ فَرِيضةٌ على هٰذه الأمّةِ مِنْ بَلَدِ الشّركِ إلى بلدِ الإسلامِ، وهي باقيةٌ إلى أنْ تقومَ الساعةُ**)) وهذا لا يعارض حديث النبي ﷺ : ((لا هجرة بعد الفتح)) يعني بعد فتح مكة ، لأن المراد بقوله ((لا هجرة بعد الفتح)) أي من مكة لا هجرة من مكة بعد فتحها، أما الهجرة من بلد الشرك عموماً إلى بلد الإسلام فهي باقية إلى قيام الساعة . والبقاء في بلد الكفر والشرك ضياع للدين ، وتضييعٌ للأمانة ، وتضييعٌ للذرية، وتضييعٌ للأهل ، وهدمٌ للعقائد ، وهدمٌ للأخلاق ؛ ولهذا قال : ((وهي باقيةٌ إلى أنْ تقومَ

الساعةُ)) قال في الهامش الشيخ عبد الرحمن بن قاسم قال : «باتفاق من يعتدّ به من أهل العلم ، قال شيخ الإسلام : لا يسلم أحد من الشرك إلا بالمباينة لأهله؛ أي البعد عنهم ببدنه وعدم الإقامة بين ظهراني الكافرين المشركين».

قال : **وهي باقيةٌ إلى أنْ تقومَ الساعةُ، والدليلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾** أي بإقامتهم بين ظهراني الكافرين وببقائهم بدول الكفر والكافرين والمشركين ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ**﴾ أي لِم مكثتم وبقيتم في هذه الأراضي لم تهاجروا؟ ﴿**قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ**﴾ يعني عاجزين لا نقدر على الخروج ولا نقدر على الذهاب ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ يعني إلى المدينة ، تخرجوا من الإقامة بين المشركين عبدة الأوثان إلى أرض الله الواسعة إلى المدينة حيث تعبدون الله وتبقون مع أهل العبادة والإيمان والتوحيد!! قال: ﴿ **فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** ﴾ وهذا فيه أن تارك الهجرة بعدما وجبت عليه مرتكبٌ كبيرة من كبائر الذنوب ، ولهذا تهدده الله جل وعلا وتوعده بنار جهنم ﴿فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ ، يستثنى من هؤلاء العاجزين فعلاً الذين لا قدرة لهم ، لا يستطيعون من ضعفة الصغار والولدان والنساء والعجزة ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ هؤلاء مستثنون من هذا الوعيد ، أما الذي عنده قدرة وقوة ومُكنة ولم يهاجر فهو عرضة لهذا الوعيد الشديد الذي جاء في قوله : ﴿فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ .

قال : ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾ أي لا يستطيعون حيلة لمفارقة المشركين والانتقال إلى ديار المسلمين ولا قوة لهم على الخروج ﴿وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾ ما يعرفون طريقاً للهجرة ، لو فكّر أحدهم يهاجر ما يحسن ولا يعرف ولا يهتدي للطريق ، ليس بالقوي النشيط المتمكن وإنما هو رجل عاجز كهل مسن ، أو امرأة لا قدرة لها ، أو طفل صغير ؛ فمثل هؤلاء يستثنون ويعذرون ؛ ولهذا استثناهم الله جل وعلا قال : ﴿**إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ**﴾ أي يتجاوز عنه هؤلاء المستضعفين الذين لا حيلة لهم ولا سبيل لهم .

قال : ﴿ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ وختم الآية بهذين الأسمين فيه دلالة على أن الله سبحانه وتعالى يعفو عمن كانت هذه حاله ، لأن تقوى الله بالاستطاعة « اتقِ الله ما استطعت » وهؤلاء غير مستطيعين ولا قادرين عاجزين ، فمن كان من أهل الأعذار فمعفوٌ عنه و«عسى» في القرآن واجبة كما قال ذلك أهل العلم . ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ أي أن الله سبحانه وتعالى يعفو عمن كانت هذه حاله؛ أي كان من أهل الأعذار ، أما من سواهم فإنه عرضة لذلك الوعيد والتهديد الوارد في قوله : ﴿ فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ .

قال : ((**وقوله تعالى**: ﴿**يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ**﴾)) أيضاً هذه فيها أمر بالهجرة والانتقال من بلد الكفر والشرك إلى بلد الإسلام ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ أي وحِّدون وأخلصوا لي الدين في أرضي الواسعة دون أن تبقوا مقيمين بين ظهراني المشركين الكافرين .

ثم نقل عن الإمام البغوي المفسر رحمه الله تعالى في ذكر سبب نزول هذه الآية قال: ((**سببُ نزولِ هٰذه الآيةِ في المسلمين الذين بمكَّةَ لم يهاجِرُوا؛ ناداهُم اللهُ جل وعلا باسمِ الإيمانِ**)) ؛ وهذا يفيد أن من لم يهاجر يكون مرتكباً لكبيرة ، لا يكون مرتكباً كفراً ناقلاً من ملة الإسلام ، وإنما يكون مرتكباً كبيرةً من الكبائر وعظيمةً من العظائم يستحق بها ذلك التهديد الوارد في قوله تعالى: ﴿ فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ . وهنا في الآية قال : ﴿ يَا عِبَادِيَ ﴾ فهذا يدل على أنهم ليسوا كفاراً لكنهم مرتكبين لكبيرة من الكبائر وعظيمة من العظائم ، وتعرضوا بها لهذا الوعيد وهو دخول جهنم وساءت مصيراً .

قال: ((**سببُ نزولِ هٰذه الآيةِ في المسلمين الذين بمكَّةَ لم يهاجِرُوا؛ ناداهُم اللهُ جل وعلا باسمِ الإيمانِ**))

هذه المناداة باسم الإيمان أو {يَا عِبَادِيَ} كما قدمت دليل على أنهم ليسوا كفاراً ولكنهم مؤمنون ناقصو الإيمان ، مؤمنون مرتكبون لكبيرة من الكبائر ، ومرتكب الكبيرة معرض للوعيد ، وهؤلاء يدل على أن فعلهم هذا كبيرة من الكبائر قوله جل وعلا : ﴿ فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ ؛ لأن التهديد بجهنم أو بسخط الله أو بذكر اللعن «لعن الله من فعل كذا» ، أو أن يقال : «ليس منا»، أو : «لا يؤمن» أو نحو ذلك هذا كله يدل على أن الأمر كبيرة من الكبائر ليس من صغائر الذنوب .

فأفادت هذه الآيات وهذه النصوص أن من لم يهاجر من بلد الكفر إلى بلد الإسلام ورضي بالإقامة بين ظهراني الكفار والمشركين مع بقائه على دينه يكون بذلك مرتكباً لكبيرة من كبائر الذنوب كما هو واضح في دلالة هذه الآيات وفي كلام أهل العلم رحمهم الله تعالى في معاني هذه الآيات .

قال : ((**والدليلُ على الهجرةِ من السُّنَّةِ**)) ؛ والدليل على أن الهجرة فريضة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام من سنة النبي عليه الصلاة والسلام : ((**قولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تَنْقَطِعُ الهجرَةُ حتَّى تَنْقَطعَ التَّوبةُ»**))

وكيف تجمع بين قوله ((لا تَنْقَطِعُ الهجرَةُ حتَّى تَنْقَطعَ التَّوبةُ)) وبين قوله في الحديث الآخر ((لا هجرة بعد الفتح)) عرفنا أن المراد بقوله : «لا هجرة بعد الفتح» أي من مكة ، لا هجرة من مكة بعد فتحها لأنها أصبحت دار إسلام ، فلا هجرة من مكة بعد الفتح ، أما من ديار الكفر عموماً فالهجرة باقية وغير منقطعة إلى قيام الساعة ، لا يحل للمسلم أن يبقى بين ظهراني الكفار .

قال : ((**والدليلُ على الهجرةِ من السُّنَّةِ قولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تَنْقَطِعُ الهجرَةُ حتَّى تَنْقَطعَ التَّوبةُ ، ولا تنقطعُ التّوبةُ حتّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»**)) ؛ «لا تَنْقَطِعُ الهجرَةُ حتَّى تَنْقَطعَ التَّوبةُ» بمعنى أن الهجرة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام باقية إلى أن يأتي الوقت الذي لا تنفع فيه التوبة ، والتوبة لا تنفع إذا طلعت الشمس من مغربها ؛ وهذا علامة من علامات الساعة وأمارة من أماراتها الكبار ، فإذا طلعت الشمس من مغربها آمن الناس كلهم جميعاً ، أعلنوا إيمانهم وصرَّحوا بإيمانهم ؛ لكن لا ينفع الإيمان ، إذا طلعت الشمس يفاجأ الناس يوم من الأيام وإذا الشمس تطلع من المغرب! فإذا رأوا هذه الآية الباهرة والعلامة العظيمة من آيات الله يؤمنون ، وهذا يسميه أهل العلم «إيمان مشاهدة» يعني شاهد الآية ، شاهد اختلال الكون وتغيره وشاهد بدأ العلامات العظمى لقيام الساعة فبدأ العالم يتغير وانتظامه بدأ يتغير؛ الشمس بدل أنها من أول الزمان تطلع من المشرق إلى المغرب فتغيب ، يُفاجؤون في يوم من الأيام وإذا بها طالعة من المغرب اتجاهها عكسي من المغرب إلى المشرق ؛ فيرون هذه الآية ويعلنون حينئذ الإيمان يؤمنون ؛ لا ينفع الإيمان . ولهذا العلماء يقولون أخذاً من الأدلة : الإيمان لا ينفع عندما تطلع الشمس من المغرب لأنه إيمان مشاهدة ، ولا تنفع عندما يغرر الإنسان ؛ عندما يعاين الموت ويشاهد الموت وتغرر روحه لا ينفع إيمانه ، مثل إيمان فرعون ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس:٩٠] لما أدركه الغرق أعلن هذا الإيمان هذا يسمى إيمان مشاهدة ، الأول مشاهدة الآية التي هي أمارةٌ وعلامة على قيام الساعة، وإيمان الغرغرة أيضاً إيمان مشاهدة للموت ؛ وهذا الإيمان لا ينفع وهذا الإيمان لا ينفع .

الشاهد أن الهجرة باقية مستمرة دائمة إلى أن تطلع الشمس من مغربها ، إذا طلعت الشمس من مغربها وهاجر الإنسان تائباً لا تفيده ، يعني رأى الآية وهاجر لكونه رأى الآية لا تفيده ، أما قبل طلوع الشمس من مغربها فالتوبة بالهجرة مفتوحٌ بابها ، لا يزال باب التوبة مفتوح حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت من مغربها طبع على كل قلب بما فيه . قال : ((ولا تنقطعُ التّوبةُ حتّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا)) .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا مُحَّد وآله وصحبه أجمعين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدرس السادس عشر

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحَّداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد :

قال شيخ الإسلام مُحَّد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له وللشارح والسامعين:

فلمَّا استقرَّ بالمدينةِ أُمِرَ ببقيَّةِ شرائعِ الإسلامِ؛ مثلُ الزكاةِ، والصّومِ، والحجِّ، والجهادِ، والأذانِ، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ وغيرِ ذلكَ مِنْ شرائعِ الإسلامِ. أخذَ على هٰذا عَشَرَ سنينَ، وبعدَها تُوُفِّيَ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ، ودينُهُ باقٍ ، وهٰذا دينُه، لا خيرَ إلاَّ دَلَّ الأمَّةَ عليهِ، ولا شَرَّ إلاَّ حَذَّرَهَا منْه. والخيُر الذي دلَّهَا عليْه: التَّوحيدُ وجميعُ ما يُحِبُّهُ اللهُ ويرضاهُ. والشَّرُّ الذي حَذَّرَهَا منه: الشِّركُ وجميعُ ما يكرَهُهُ اللهُ ويأباهُ.

بعثَهُ اللهُ إلى الناسِ كافَّة، وافترضَ الله طاعَتَه على جميعِ الثّقلينِ: الجنِّ والإنسِ، والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف:١٥٨]. **وأكمَّلَ اللهُ به الدينَ والدليلُ قوله تعالى:** ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[المائدة:٠٣]. **والدليلُ على موتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولُهُ تعالى:** ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[الزمر:٣٠-٣١].

والناسُ إذَا ماتُوا يُبْعَثُونَ، والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[طه:٥٥]، **وقولُهُ تعالى:** ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾[نوح:١٧-١٨].

وبعدَ البَعْثِ محاسبُونَ ومجزيُّونَ بأعْمالِهِمْ؛ والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾[النجم:٣١]، **ومَنْ كَذَّبَ بالبعثِ كَفَرَ، والدليلُ قولُهُ تعالى:** ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[التغابن:٠٧] .

****

فإن المصنف رحمه الله لا يزال يبين ما يتعلق بالأصل الثالث وهو معرفة العبد نبيه ؛ حيث ذكر رحمه الله تعالى فيما سبق شيئاً من أخبار النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، ذكر نسبه ومولده ونشأته ، وذكر أنه عليه الصلاة والسلام نبئ بـ «إقرأ» وأرسل بـ«المدثر» ، وذكر أيضاً الأذى الذي حصل له من قومه وتمالئهم

على قتله عليه الصلاة والسلام ، وأن الله سبحانه وتعالى أذن له بأن يهاجر إلى المدينة، وأنه عليه الصلاة والسلام هاجر إلى المدينة، ثم تحدث عن الهجرة وأنها واجبة وباقية من ديار الكفر إلى ديار الإسلام ، وذكر بعض الأدلة من القرآن والسنة . بعد ذلكم أخذ يبين حال النبي عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة حيث استقر عليه الصلاة والسلام في المدينة .

قال : ((**فلمَّا استقرَّ بالمدينةِ أُمِرَ ببقيَّةِ شرائعِ الإسلامِ**)) أي أنه عليه الصلاة والسلام في مكة -كما سبق إيضاح ذلك عند المصنف- مضى عشر سنين بعد مبعثه ﷺ لا يدعو إلا شيء إلا للتوحيد ونبذ الشرك ، ولم يؤمر بشيء آخر ولم يوحَ إليه بشيء آخر إلا بالتوحيد ودلائل التوحيد وبراهينه ؛ هذا الذي كان في العشر سنوات الأولى من مبعثه صلوات الله وسلامه عليه . ولما أتم عشر سنوات في الدعوة إلى التوحيد أُمر بالصلاة ، وسبق إشارة المصنف إلى الإسراء والمعراج وأن الصلاة فرضت على النبي عليه الصلاة والسلام فوق سبع سماوات ، وسمع أمر الله سبحانه وتعالى بها من الله مباشرة -ﷺ- ، فالذي فُرض عليه في مكة التوحيد ونبذ الشرك ، ثم بعد عشر سنوات فُرضت الصلاة ثم لم يفرض عليه شيء إلى أن هاجر إلى المدينة عليه الصلاة والسلام واستقر بها ، بعد ذلكم بدأ يوحى إليه عليه الصلاة والسلام بالفرائض والأوامر الأخرى كما يأتي بيان ذلك عند المصنف رحمه الله تعالى .

قال : ((**فلمَّا استقرَّ بالمدينةِ أُمِرَ ببقيَّةِ شرائعِ الإسلامِ**)) أي لما استقر بالمدينة بعد الهجرة إليها وقوي أمر التوحيد وشاع وانتشر واتضح للناس وابتعدوا عن الشرك ومنّ الله جل وعلا عليهم بالهداية للتوحيد ؛ بعد ثبات التوحيد وتقرير دلائله وحججه وبيناته واتضاح هذا الأمر بعد ذلكم جاءت الفرائض؛ وهذا فيه التنبيه أن الأعمال لا تفيد إلا إذا أرسي أساسها وثُبِّت عمادها ، أما ما لم تكن كذلك فإنها لا تفيد ولا تنفع ، شأن البيت إن لم يبنى على أساس ثابت وعماد راسخ سرعان ما يتهاوى وينهار . ولهذا مكث عليه الصلاة والسلام طويلاً يثبّت التوحيد ويذكر دعائمه ودلائله وحججه وبراهينه ويرسخ ذلك في الناس ، ثم بعد ذلك جاءت الفرائض؛ لأن الفرائض لو أقيمت على غير أساس لا تفيد ، فهي إنما تكون نافعة إذا أقيمت على أساس ثابت وأصل راسخ ؛ وهو توحيد الله جل وعلا .

ولهذا ينبغي أن يعي الناس ، أن يعي المسلمون هذا الأمر العظيم من سيرة نبينا عليه الصلاة والسلام ، يجب أن يعي المسلمون ذلك ؛ عشر سنين كاملات من مبعثه عليه الصلاة والسلام أمضاها في التوحيد فقط والتحذير من الشرك ، ثم بعد ذلك تُفرض الصلاة فقط ويبقى على ذلك الحال وقتاً ، ثم لما استقر بالمدينة وبعد أن استقر بها وقتاً بدأت الفرائض الأخرى كما سيبين ذلك المصنف رحمه الله تعالى . فهذا ينبغي أن يستفيد المسلمون منه درساً عظيماً ألا وهو: العناية بأمر التوحيد والحذر من الشرك والعناية بتثبيته وفهمه ومعرفة دلائله وحججه وبيناته من كتاب الله جل وعلا وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((**فلمَّا استقرَّ بالمدينةِ أُمِرَ ببقيَّةِ شرائعِ الإسلامِ مثل: الزكاةِ، والصّومِ، والحجِّ، والجهادِ، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ**)) هذه الفرائض «الزكاةِ والصّومِ» فرض على النبي ﷺ في السنة الثانية من الهجرة ، و«الحجِّ» فرض عليه صلوات الله وسلامه عليه في السنة التاسعة من الهجرة ، والإسلام بني على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رسول الله؛ وهذا هو الأساس أمضى فيه عليه الصلاة والسلام عشر سنوات ، ثم بعد ذلك تأتي الصلاة وهي عماد الدين فُرضت عليه بمكة في السنة العاشرة من البعثة ، بعد أن أمضى عليه الصلاة والسلام من بعثته عشر سنوات فُرضت الصلاة ، وبقي أهل الإسلام على هذه الحال توحيد وصلاة ، ثم هاجر إلى المدينة في السنة الثانية من الهجرة فُرض على الناس الزكاة والصيام ، ثم في السنة التاسعة من الهجرة فرض الحج .

وهذا يبين تفاضل مباني الإسلام في المكانة والمنزلة وترتُّب الأمور في العمل بالإسلام ؛ الآن ترى في الناس من يحج ولا يصلي ولا يعتني بالصلاة! هل فهم الإسلام ؟ الحج لم يُفرض إلا بعد الصلاة بسين عديدة ، كان الأمر توحيد ، الفرض هو التوحيد ونبذ الشرك ، ثم بعد المبعث بعشر سنوات فرضت الصلاة ، وبقي ثلاث سنوات في مكة مفروضةً الصلاة المكتوبة خمس صلوات في اليوم والليلة ، ثم بُعث في المدينة بقي سنتين فهذه خمس سنوات ، ثم بعد ذلك فرضت الزكاة والصيام ، ثم في السنة التاسعة من الهجرة فرض الحج ، وترى في الناس الآن من يحج ولا يصلي ، حتى في وقت الحج لا يحافظ على الصلاة ولا يعتني بها! هل هذا فهم الإسلام ؟ وأيضاً ترى من يحج ولكن ينقض كل شيء ويهدم كل شيء بالتعلق بغير الله ، والتوجه بالقصد لغير الله ، والالتجاء لطلب الحاجات إلى غير الله من المقبورين وغيرهم؛ يدعوهم ويستغيث بهم ويلتجئ إليهم ويعرض عليهم حاجاته وطلباته من شفاء مريض أو حصول رزق أو كشف غم أو زروال هم أو غير ذلك مما لا يُلجأ فيه إلا إلى الله سبحانه وتعالى؛ فهل فهم هؤلاء الإسلام ؟

ولهذا يحتاج الناس إلى دراسة السيرة دراسة فاحصة ، ومعرفة هدي النبي ﷺ معرفة صحيحة ، وإذا لم يعرفوا الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يعرفوا سيرته وهديه جهلوا دينهم وضيَّعوه ووقعوا في أنواع من الضلالات والانحرافات ؛ ولهذا يحتاج الناس فعلاً إلى دراسة صحيحة لسيرة النبي عليه الصلاة والسلام وتأملٍ في هديه وعنايته ﷺ بالتوحيد والإخلاص ، ثم الصلاة ، ثم هكذا تتدرج أمور الإسلام؛ أول ما بدأ الأمر بالتوحيد ، ثم جاءت الصلاة ، ثم جاءت الزكاة والصيام ، ثم جاء الحج، وهكذا إلى أن نزلت الآية الكريمة : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] .

قال : ((**مثلُ الزكاةِ**)) أي الزكاة المفروضة ؛ وهي صدقة تؤخذ من الأغنياء وترد على الفقراء ، وسواءً كان الغنى بالمال ، أو كان الغنى بالحرث والزراعة ، أو كان الغنى بامتلاك بهيمة الأنعام؛ فكل هؤلاء يُخرجون

نصيباً من هذا المال الذي أغناهم الله سبحانه وتعالى به من فضله يخرجون جزءً قليلاً وقدراً يسيراً من هذا المال زكاةً تُقدَّم إلى الفقراء والمحاويج ، وتكون بركةً للمال وطهرةً للمزكي وزكاةً له .

قال : ((**والصّومِ**)) أي الصوم المفروض ؛ وهو صيام شهر رمضان ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣] ، وهو شهر كامل يصام في السنة ، يصام نهاره من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، يُمتنع في نهاره عن الطعام والشراب والجماع وغير ذلك من المفطرات طاعةً لله سبحانه وتعالى وطلباً لثوابه ، ((من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)) .

قال : ((**والحجِّ**)) أي وفَرض على الناس الحج ؛ فرض في السنة التاسعة من الهجرة ، والحج: هو قصد بيت الله الحرام لأعمالٍ مخصوصة في وقتٍ مخصوص ، وهو لا يجب على المسلم في عمره كله وحياته جميعها إلا مرة واحدة، ((الحج مرة وما زاد فهو تطوع)) ، ولا يجب إلا على المستطيع ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٧] .

قال : ((**والجهاد**)) أي في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ولنصرة دين الله ولكي لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

((**والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ**)) أي أمر الناس بالمعروف ؛ وهو ما أمر الله سبحانه وتعالى به ، وما أمر به رسوله ﷺ ، ونهيهم عن المنكر؛ أي نهي الناس عما حرم الله وما حرم رسوله ﷺ ، وهذا من الأمور المهمة والعظيمة لقيام الدين ، الدين لا يقوم إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يحتاج الناس إلى ذلك وإلا فإن أمور الدين تتقوض والناس تُتخطف ويضِلون عن دينهم ؛ إلا إن أكرمهم الله سبحانه وتعالى ويسَّر لهم بمن يدعوهم إلى الخير ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . ولهذا حقيقةً فإن الدعاة إلى الله والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر صِمام أمان للمجتمع من سخط الله جل وعلا وعقابه ؛ فالناس لا تصلح حالهم إلا بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإذا تخلى أهل الخير عن ذلك ضاع الناس وتخطفتهم شياطين الجن والإنس ، واعتبر ذلك في البلدان والمناطق التي لا يوجد فيها أمر بالمعروف ولا نهي عن المنكر ؛ كيف أن الفوضى تعم تلك المناطق ، والضلال ينتشر فيها ، والباطل يخيم ، ويتسلط فيها دعاة الشر والضلال والفساد .

قال : ((**وغيرِ ذلكَ مِنْ شرائعِ الإسلامِ**)) أي وأُمر عليه الصلاة والسلام بغير ذلك من شرائع الإسلام ؛ من فرائض ونهي عن المحرمات وأمر بالرغائب والمستحبات ، فلازالت الأوامر تنزل والنواهي تنزل تباعاً على رسول الله ﷺ بوحي الله جل وعلا الذي هو القرآن ، وبوحي الله جل وعلا الذي هم سنة النبي عليه

الصلاة والسلام؛ فالقرآن والسنة كله وحي الله وتنزيله ، فلازالت الفرائض تنزل على نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام إلى أن نزل عليه قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣] ، وسيأتي ذكرها عند المصنف رحمه الله تعالى .

قال : ((**أخذَ على هٰذا عَشَرَ سنينَ**)) أخذ على هذا : يعني على هذه الحال تتنزل عليه الفرائض والأوامر والنواهي والشرائع وهو مستقر في المدينة ﷺ ، يخرج منها لنصرة الدين والذب عن حِماه والدعوة إلى الله ، ويبعث البعوث ويرسل الرسل ويكتب المكاتيب دعوةً لدين الله جل وعلا ونصرةً لهذا الدين . بقي عليه الصلاة والسلام وأخذ على هذه الحال عشر سنين ، عشر سنين إذا ضممت إليها ثلاثة عشرة سنة قبل الهجرة وبعد البعثة ، وأربعين سنة من ولادته إلى أن بُعث يتحصل من مجموع ذلك ثلاث وستون سنة ؛ وهي مدة حياته المباركة صلوات الله وسلامه عليه . وحياته ﷺ هي أبرك حياة إنسان على الإطلاق ، وأكمل إنسان على الإطلاق في عبودية الله والذل له والقيام بطاعته والدعوة لدينه والنصرة للحق والهدى . أمضى عليه الصلاة والسلام ((أخذ على ذلك عشر سنين)) أي بعد أن استقر بالمدينة .

((**وبعدَها تُوُفِّيَ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ**)) أي بعدها توفاه الله جل وعلا وقبض روحه الشريفة ﷺ ومات ، مات عليه الصلاة والسلام وصحبه الكرام غسلوه وكفنوه وصلّوا عليه أوزاعاً ، ودفنوه في حجرة عائشة رضي الله عنها ؛ لأن أبا بكر رضي الله عنه روى عن النبي ﷺ أنه قال : ((يُدفن الأنبياء حيث ماتوا)) ومات عليه الصلاة والسلام في حجرة عائشة رضي الله عنها بين سحرها ونحرها ، ودفن ﷺ في حجرتها .

وكانت وفاته عليه الصلاة والسلام أعظم المصائب وأكبرها على الإطلاق ، وفُجع الصحابة رضي الله عنهم بموته ﷺ ونزل عليهم نازلة لم يمر عليهم في النوازل مثلها ، وحصلت لهم مصيبة لم يمر عليهم في المصائب مثلها ؛ حتى إن بعضاً من أصحاب النبي ﷺ شك في موته وأنكر ذلك ، حتى جاء صديق الأمة أبو بكر الصديق وكشف عن وجه نبينا ﷺ وقبّله ثم قام رضي الله عنه خطيباً في أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام وقال رضي الله عنه : «من كان يعبد مُحَّداً فإن مُحَّداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت» ؛ مُحَّد عليه الصلاة والسلام قد مات ؛ أي باعتبار هذه الحياة فارق هذه الدنيا، قضى نحبه عليه الصلاة والسلام وانتهت مدته في هذه الحياة ، وهو عبدٌ من عباد الله قبض الله سبحانه وتعالى روحه لما انتهت مدته في هذه الحياة ، قد جاء في حديث قدسي قال الله جل وعلا : ((ما ترددت في شيء ترددي في قبض روح المؤمن)) فكيف بقبض روح المصطفى ﷺ!! لكن هذه سنَّة الله جل وعلا ماضية في الناس أجمعين ، فقبض الله جل وعلا روحه ﷺ ، وهي أشرف روح قبضت روح نبينا صلوات الله وسلامه عليه .

قال أبو بكر ﷺ لما رأى النبي عليه الصلاة والسلام وقد توفاه الله جل وعلا وقد قُبضت روحه ﷺ وفارق هذه الحياة قال : «بأبي أنت وأمي ، أما الموتة التي كُتبت عليك فقد متها» أي أنه عليه الصلاة والسلام كتب الله عليه هذه الموتة وأخبره بها في وحي يتلى ولا يزال يقرأ في كلام الله جل وعلا : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر:٣] ، ﴿ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ [آل عمران:١٤٤] ، فالله جل وعلا كتب عليه هذه الموتة وأخبره بها في آيات تتلى وتقرأ في كلام الله سبحانه وتعالى ، وقبضت روحه فقال أبو بكر ﷺ : «أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها» يشير إلى آيات كثيرة في هذا الباب وفي تقرير هذا المعنى .

ثم قال للصحابة ﷺ تثبيتاً لهم : «من كان يعبد مُحَمَّداً فإن مُحَمَّداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت» . وفي هذا من الموعظة ومن البيان أن العبادة ليست إلا للحي الذي لا يموت وهو رب العالمين ، أما الحي الذي يموت ، أو الحي الذي قد مات ، أو الجماد الذي لا حياة له أصلاً ؛ كل هؤلاء لا أحقية لهم في العبادة مطلقاً ، العبادة حق للحي الذي لا يموت وهو رب العالمين جل شأنه ، قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة:٢٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان:٥٨] ، وكان عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه ومناجاته لربه كما في صحيحين : «اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وعليك أنبت وبك خاصمت، أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت ، فأنت الحي الذي لا يموت والإنس والجن يموتون» .

فنبينا عليه الصلاة والسلام بعد تلك الحياة العامرة بالجد والاجتهاد والنصرة لدين الله والدعوة إلى الحق والهدى وبلا غ الدين كما أمره الله سبحانه وتعالى به والأمر بالهدى والدعوة إلى صراط الله المستقيم ؛ بعد هذه العمر الحافلة بالخير والحياة المليئة بالجد والنصح والدعوة وبيان الدين ، وهي أعمر حياةٍ وُجدت في العبودية والطاعة لله سبحانه وتعالى بعد ذلك قبضت روحه عليه الصلاة والسلام وفارق هذه الحياة التي هي الحياة الدنيا .

وهو ﷺ كما دلت النصوص ودل الواقع قد مات ؛ وهذا يتلى في القرآن ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ ﴾ [الزمر:٣] ، ﴿ أَفَإِن مَّاتَ ﴾ [آل عمران:١٤٤] ؛ فهو باعتبار هذه الحياة الدنيا مات وفارقت روحه جسده ﷺ . ودفن عليه الصلاة والسلام في قبره وهو في المكان لذي دفن فيه من حجرة عائشة ﷺ ، دفن ﷺ بعد أن غسله الصحابة وكفنوه وصلوا عليه أوزاعاً ثم دُفن ؛ أهالوا عليه التراب ، قالت ابنته فاطمة : «أطاب لكم أن تهيلوا على نبيكم التراب؟!» لكنها سنة الله ، سنة الله جل وعلا في البشر أجمعين ، وهي ماضية ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ(٢١) ثُمَّ

﴿إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس:٢١-٢١] ، وقبر الميت ودفنه هو كرامة له ، قبره منة الله سبحانه وتعالى ودفنه وإهالة التراب على الميت هذه كرامة للميت .

الشاهد أن سنة الله سبحانه وتعالى ماضية في عباده وفي خلقه ، وكما قدمت قال أبو بكر رضي الله عنه كلمته العظيمة : «من كان يعبد مُحَّداً فإن مُحَّداً قد مات» ، ولا يزال الكثير من الضلال الزائغين المنحرفين عن صراط الله المستقيم لا يزالون يصرون على صرف حق الله للنبي عليه الصلاة والسلام ولغيره من عباد الله! يدعونهم ويستغيثون بهم ويطلبون منهم ويعرضون عليهم الحاجات والرغبات والطلبات ، بل بعضهم يرسل المكاتيب إلى قبر النبي عليه الصلاة والسلام : "أريد ولداً ، أريد مالاً ، أريد صحة ، أريد عافية ..الخ" ، «من كان يعبد مُحَّداً فإن مُحَّداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌ لا يموت» ؛ العبادة والدعاء والرجاء والذبح والاستغاثة والنذر وكل هذه العبادات لا يُتجه فيها ولا تصرف إلا لله سبحانه وتعالى ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨] ، أما نبينا عليه الصلاة والسلام فهو عبدٌ لا يُعبد ، بل رسول يطاع ويُتبع ، أما العبادة ليست له ولا جزء يسير منها ولا قليل ، العبادة كلها حقٌ لله . غضب عليه الصلاة والسلام من رجل قال : «ما شاء الله وشئت» قال : ((أجعلتني لله نداً ؟ قل: ما شاء الله وحده)) ، لا يرضى عليه الصلاة والسلام أن يُرفع فوق منزلته التي أنزله الله إياها .

فمات صلوات الله وسلامه عليه ، ودفن ﷺ وأهيل على جسمه التراب ، سنة الله جل وعلا ماضية لكن دينه باقٍ ؛ ولهذا قال المصنف رحمه الله تعالى : **((وبعدَها تُوُفِّيَ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ ودينُهُ باقٍ))** ؛ ولهذا من أراد لنفسه الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة فعليه أن يتمسك بدينه فدينه باق ، وأما هو عليه الصلاة والسلام قد مات ودفن في قبره وانقطع عمله ، كما قال ﷺ : ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ؛ صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له)) ؛ ولهذا بعد موته عليه الصلاة والسلام لا يستغفر لأحد ولا يدعو لأحد ولا يسأل الغيث لأحد . الصحابة في حياته ﷺ يأتون إليه ويطلبون منه ، يطلبون منه الدعاء ؛ «أدع الله أن يغيثنا» ، «أدع الله أن يغفر لي» يطلبون منه الدعاء ، لكن بعد موته لا يُعرف عن أحد منهم أنه كان يأتي عند قبره ويقول : "أدع الله لي أو أطلب من الله أن يغفر لي" أو نحو ذلك هذا كله لا يُعرف ، بل جاء في صحيح البخاري أنه عليه الصلاة والسلام قال لعائشة رضي الله عنها : ((إن كان ذاك وأنا حي استغفرتُ لك))؛ أي أنه عليه الصلاة والسلام بعد أن مات لا يستغفر لأحد .

ولهذا يخطئ بعض الناس ويقرأ الآية وينزِّلها في غير بابها ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ [النساء:٦٤] فيقرأون الآية عند قبره ثم يقولون : "استغفر لنا يا رسول الله" !! هذا ليس من الأمور المشروعة ولا كان الصحابة ﷺ يفعلون ذلك إطلاقاً ، هذا كان في حياته ، وسياق هذه الآيات من يقرأها في سورة النساء يجد أنها تتعلق بالمنافقين ؛ قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ ؛ فيأتي أناس وينزلون هذه الآية بغير بابها ويلغون آيات كثيرة وأحاديث عديدة ثابتة عن نبينا عليه الصلاة والسلام تجلي هذا المقصود ، ابن عمر رضي الله عنهما الصحابي الجليل كان إذا جاء قبر النبي عليه الصلاة والسلام زائراً لا يزيد على أن يقول : «السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليم يا أبا بكر ، السلام عليك يا عمر أو يا أبتاه» ثم ينصرف .

فسيرة النبي عليه الصلاة والسلام وحياته المباركة التي هي أبرك حياة ينبغي أن تُدرس وأن تُفقه وأن تجعل موضع اقتداء وائتساء ؛ بدل من أن يحال الدين إلى أنواع من البدع وصنوفٍ من الضلالات وربما أعمالٍ شركيات ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان .

قال : ((**ودينُهُ باقٍ**)) أي إلى قيام الساعة محفوظ بحفظ الله جل وعلا ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة إلى أن تقوم الساعة)) ؛ فدينه عليه الصلاة والسلام باقٍ وهو محفوظ .

ما هو دينه ؟ قال : ((**وهٰذا دينُه، لا خيرَ إلاَّ دَلَّ الأمَّةَ عليهِ، ولا شَر إلاَّ حَذَّرَهَا منْه ، والخيْرُ الذي دلَّهَا عليْه: التَّوحيدُ وجميعُ ما يُحِبُّهُ اللهُ ويرضاه، والشَّرُّ الذي حَذَّرَهَا منه: الشِّركُ وجميعُ ما يكرَهُهُ اللهُ ويأباهُ**)) ؛ هذه خلاصة دين النبي عليه الصلاة والسلام وزبدة ما جاء به ﷺ تجتمع في هذه الكلمات ؛ قال : ((لا خيرَ إلاَّ دَلَّ الأمَّةَ عليهِ، ولا شَر إلاَّ حَذَّرَهَا منْه)) ، وقد جاء في حديث صحيح خرجه مسلم أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته إلى خير ما يعلمه لهم ، وأن ينذر أمته من شر ما يعلمه لهم)) ؛ وهذا عليه الصلاة والسلام فعله على التمام والكمال ، فبلَّغ البلاغ المبين، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، وما ترك خيراً إلا دل الأمة عليه ، ولا شراً إلا حذرها منه صلوات الله وسلامه عليه ؛ دلها وأرشدها إلى كل خير ، ونهاها وحذرها من كل شر ، وأعظم الخير وأجلُّه على الإطلاق: توحيد الله ، وقد عرفنا أنه مضى في التوحيد عشر سنوات كاملات ، ثم بعد ذلك مضى داعياً إلى التوحيد وإلى الفرائض الأخرى والشرائع الأخرى التي أمره الله سبحانه وتعالى بأن يبلغها .

قال : ((**لا خيرَ إلاَّ دَلَّ الأمَّةَ عليهِ، ولا شَر إلاَّ حَذَّرَهَا منْه ، والخيْرُ الذي دلَّهَا عليْه: التَّوحيدُ وجميعُ ما يُحِبُّهُ اللهُ ويرضاهُ**)) التوحيد هو الأساس ، وهو إفراد الله جل وعلا بالعبادة وإخلاص الدين له ، أمرهم بالتوحيد وهو أعظم الأوامر وأمرهم أيضاً بالأمور الأخرى قال : ((وجميعُ ما يُحِبُّهُ اللهُ ويرضاهُ)) مثل الصلاة والصيام والزكاة والحج والصدقة وبر الوالدين وصلة الأرحام والصدق والوفاء والأمانة وكل الأعمال الصالحات التي يحبها الله ويرضاها ظاهرة كانت أو باطنة.

قال : ((**والشَّرُّ الذي حَذَّرَهَا منه: الشِّركُ**)) وهو تسوية غير الله بالله ، وجعل الأنداد مع الله يُصرف لهم من الحقوق ما ليس إلا لله تبارك وتعالى ، وهو أعظم الذنب وأكبر الجرم وأظلم الظلم ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] .

قال : ((**والشَّرُّ الذي حَذَّرَهَا منه: الشِّركُ وجميعُ ما يكرَهُهُ اللهُ ويأباهُ**)) أي من المعاصي والكبائر والذنوب والموبقات كالقتل والسرقة والزنا والكذب والغش وغير ذلك مما جاء عنه ﷺ النهي عنه والتحذير منه . والذي نهى عنه صلوات الله وسلامه عليه: كبائر وصغائر ، وأهل العلم كتبوا في ذلك كتابات نافعة، ودائماً في هذا المقام أنصح بقراءة كتاب «الكبائر» للذهبي رحمه الله ، وأيضاً كتاب «الكبائر» للمصنف شيخ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله .

العلماء كتبوا كتباً خاصة في النواهي؛ لأن النواهي يجب على المسلم أن يعرفها ليجتنبها ، كما أنه مطالب بفعل الأوامر ليفعلها ، أما من لم يعرف ما نهى الله عنه وما حرمه الله عليه كيف يتقيه ، وقد قيل قديماً : «كيف يتقي من لا يدري ما يتقي؟!» . حذيفة بن اليمان ﷺ كما جاء في صحيح البخاري قال : «كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني» . فمعرفة الشر من أجل توقي الشر والبُعد عنه وعدم الوقوع فيه أمر مطلوب من المسلم ؛ ولهذا ترى الناس عندما يعيشون حياة الجهل يقعون في أنواع من المحرمات ربما لا يدري بعضهم أنها محرمة ، وربما بعضهم لا يري حجم عقوبتها عند الله سبحانه وتعالى ، ولهذا يحتاج المسلم أن يغتنم وجوده في هذه الحياة الدنيا أن يقرأ وأن يعرف الكبائر ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء:٣١] ، فمطلوب من المسلم أن يعرف الكبائر وأن يجتنب الكبائر وأن يحذر منها . وأكبر الكبائر الشرك بالله كما قال عليه الصلاة والسلام : ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا : بلى يا رسول الله قال : الشرك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور)) ، وجاء عنه صلى الله عليه وسلم في هذا المعنى أحاديث كثيرة .

قال رحمه الله تعالى : ((**بعثَهُ اللهُ إلى الناسِ كافَّة**)) إلى الناس : أي إلى العرب والعجم إلى الذكور والإناث ، إلى الصغار والكبار ، بعثه الله جل وعلا إلى الثقلين ؛ إلى الإنس والجن .

قال رحمه الله تعالى : ((**بعثَهُ اللهُ إلى الناسِ كافَّة وافترضَ الله طاعَتَه على جميعِ الثّقلينِ**)) افترض طاعته ؛ تغير المفهوم عند بعض الناس وتحولت الطاعة إلى عبادةٍ له ، والله جل وعلا افترض على الناس طاعته وإتباع أمره ولزوم ما جاء به ، لا أن يُتخذ نداً مع الله يُدعى ويستغاث به وتصرف له من العبادات ما لا يصرف إلا لله جل وعلا.

قال : ((**وافترضَ الله طاعَتَه على جميعِ الثّقلينِ الجنّ والإنسِ**)) وهذا أمر أجمع عليه المسلمون قاطبة؛ أنه عليه الصلاة والسلام بُعث إلى الثقلين الإنس والجن، ورسالته عامة ، بينما كان الأنبياء قبله يُبعث كل نبي في قومه خاصة ، وبعث النبي ﷺ للناس عامة وللثقلين كافة .

قال : (**والدليلُ قولُهُ تعالى:** ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾)) وجاءت آيات في القرآن تدل على أن بعثته عليه الصلاة والسلام شاملة للجن ؛ مثل الآية التي في سورة الأحقاف ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ [الأحقاف:٢٩] إلى آخر الآية والآيات بعدها ، فهو عليه الصلاة والسلام بُعث للثقيلين الإنس والجن ، وافترض على الجميع طاعته ﷺ ، وأخبر أن من أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار .

قال : ((**وأكمَّلَ اللهُ به الدينَ**)) ؛ ونزل عليه في ذلك تنصيصاً وتبييناً قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] «اليوم» في هذه الآية المراد به يوم عرفة ، لأن هذه الآية الكريمة نزلت على النبي ﷺ عشية عرفة وهو واقفٌ بعرفة ويهلل ويذكر الله ، نزلت عليه الآية هذه في تلك الأثناء وهو واقف بعرفة عشية عرفة؛ نزل عليه قول الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ، وجاء في صحيح البخاري أن نفراً من اليهود قالوا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : «نزلت عليكم معشر المسلمين آية لو نزلت علينا معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيداً» ماذا نستفيد من هذه الكلمة ؟ أن اليهود أدركوا عظمة هذه الآية وفضل الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة بهذه الآية ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ ؛ فيدركون أن هذه الآية عظيمة جداً ، ولكن ترى في المسلمين من لا يعي هذه الآية! الله يقول : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ ثم يتركون الدين الذي بُعث به عليه الصلاة والسلام ويعبدون الله ببدع ليست من الدين ، ليس فيها قرآن ولا سنة بل هي محدثة داخلة في قوله عليه الصلاة والسلام : ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)) ، ولهذا لم يعي هؤلاء هذه الآية وفي هذا قال الإمام مالك إمام دار الهجرة رحمه الله تعالى: «من قال في الدين بدعة

حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة» لماذا ؟ قال : «لأن الله يقول : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾» ؛ إذا كان الدين كامل لماذا البدع ؟ ولماذا الإحداث ؟ ولماذا الاختراع ؟ الدين كامل ، الكامل لا يُبحث له عن تكميل ، الذي يُبحث له عن تكميل الناقص ، أما ديننا كامل لا نقص فيه ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ، فالدين كامل لا يحتاج إلى مكملات . فالذي يعبد الله سبحانه وتعالى ببدع ليس عليها دليل في القرآن ولا في السنة أين هو من هذه الآية الكريمة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ؟ ولهذا قال مالك : «من قال في الدين بدعة حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة لأن الله تعالى يقول : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ ، وما لم يكن ديناً زمن محمد صلى اله عليه وسلم وأصحابه فلن يكون اليوم ديناً ولن يكون ديناً إلى أن تقوم الساعة» ، ثم أتم قوله بقوله : «ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها» ، وأول الأمة إنما صلحوا بالإتباع لا بالابتداع وبالاتساء ، يقول عبد الله بن مسعود : «إنا نقتدي ولا نبتدي ، ونتبع ولا نبتدع ، ولن نضل ما تمسكنا بالأثر».

فالشاهد أن نفراً من اليهود قالوا لعمر : «نزلت عليكم معشر المسلمين آية لو نزلت علينا معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيداً» فقال عمر رضي الله عنه : «إنني أعرف متى نزلت والساعة التي نزلت والمكان الذي نزل فيه على رسول الله ﷺ؛ نزلت عشية عرفة في صعيد عرفة وهو واقف عليه الصلاة والسلام يناجي ربه» ، نزلت عليه هذه الآيات : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ .

بعد هذه الآية التي فيها الإخبار بأن الدين كمُل كم عاش ؟ هذه الآية نزلت عليه في التاسع يوم عرفة من شهر ذي الحجة ، بعدها عليه الصلاة والسلام عاش واحد وثمانين يوماً بعد هذه الآية ، في هذه الواحد والثمانين يوم ما نزلت آيات فيها أحكام ؛ أوامر ونواهي ، أحكام أخرى لم تنزل بعد هذه الآية لماذا ؟ لأن الآية نزلت معْلِمةً النبي عليه الصلاة والسلام بأن الدين كمل تم ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ؛ ولهذا عاش بعدها عليه الصلاة والسلام واحد وثمانين يوم لم ينزل عليه فيها أمر ولا نهي ، لم ينزل عليه شرائع وأحكام ، لأن الأحكام اكتملت وتمت في ذلك اليوم المبارك الذي هو سيد الأيام وخير الأيام ، قال عليه الصلاة والسلام : ((خير الدعاء دعاء يوم عرفة)) يوم عرفة خير أيام الدعاء وأرجى أيام الدعاء ؛ فنزلت عليه هذه الآية وبعدها لم ينزل عليه ﷺ أوامر ونواهي وأحكام .

ثم ترى في الناس بعد ذلك من يطِّرحون هذه الآية ويلغون دلالتها ويشتغلون بالتعبد بالبدع والمحدثات والمخترعات وأمور ما أنزل الله سبحانه وتعالى! هل هؤلاء فهموا هذه الآية ووعوا دلالتها ؟ لا والله ، الذين وعوا دلالة هذه الآية هم الذين تجنبوا البدع ولم يدخلوا في شيء منها ، ولزموا دين الله تبارك وتعالى وتمسكوا

به وحافظوا عليه ولم يحدِثوا شيئاً ولم يخترعوا شيئاً ، مثل ما قال عبد الله بن مسعود قال: «إنا نقتدي ولا نبتدي ، ونتبع ولا نبتدع ولن نضل ما تمسكنا بالأثر» ، ترى في الناس أعمالاً ليست موجودة في القرآن والسنة ، زيادات ليست موجودة إطلاقاً في القرآن والسنة وإذا سألت عن المصدر أحدهم يقول : رأيت في المنام ، والثاني يحكي حكاية ، أو يذكر تجربة، أو يروي ذوقاً ووجداً، أو ينسب إلى شيخ أو طريقة أو غير ذلك ؛ أبمثل هذا يُتعبد الله ؟! وينسى قول الله جل وعلا : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ؟

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ أي أن دين الله عز وجل كمل ، والكامل لا يحتاج أن يكمل ، الذي يحتاج أن يكمل هو الناقص أما دين الله فكمل . ﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ ؛ وهذه أكبر نعمة الدين وكمال الدين والهداية للدين هذه أكبر النعم وأجلها . قال : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ أي فارضوه لأنفسكم ولا تقبلوا ديناً غيره ولا ترضوا لأنفسكم ديناً سواه فإنه الدين الذي رضيه الله لعباده ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ، ولهذا جاء في آية أخرى أن الله يقول : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥] .

قال : ((**والدليلُ على موتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**)) هذه تعتبر قضية كبيرة الآن من القضايا الكبار التي جهلها كثير من الناس وضُلِّلت فيها كثير من الأفهام ، وأصبح يغالط الناس في حقيقة يشهد لها القرآن الكريم ويشهد لها أحاديث النبي ﷺ وسيرته وواقع الأمر .

قال : ((**والدليلُ على موتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولُهُ تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾**)) ؛ «إِنَّكَ مَيِّتٌ» أخبره الله سبحانه وتعالى بذلك ثم توفاه الله جل وعلا لما انتهت مدته التي كتبها الله سبحانه وتعالى له في هذه الحياة ؛ ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد:٣٨] ، ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٤] .

قال : ((**والدليلُ على موتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولُهُ تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ ﴾**)) أي إنك أيها النبي ستموت . ومات عليه الصلاة والسلام ، وكان ﷺ إذا زار القبور ماذا يقول ؟ «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، أنتم السابقون ونحن إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية» . قال : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ .

قال : ((**والناسُ إذَا ماتُوا يُبْعَثُونَ، والدليلُ قولُهُ تعالى:** ﴿**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى**﴾) الضمائر هنا كلها تعود على الأرض؛ «منها» و«فيها» و«منها» الضمائر كلها تعود إلى الأرض.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ لأن بني آدم أصلهم من آدم وآدم من تراب ، خلقه الله سبحانه وتعالى من التراب ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي من الأرض خلقناكم

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي أن كل واحد منكم أيها الناس سيموت ويعاد إلى الأرض أي أنه يدفن فيها

﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ أي أنكم أجمعين سوف تبعثون ؛ تنشق الأرض عمن فيها ويبعثون قياماً لرب العالمين ، مثل هذه الآية قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف:٢٥] .

قال : ((وقولُهُ تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾)) الإشارة هنا إلى مبدأ خلق بني آدم من الأرض ، لأن آدم عليه السلام من تراب خلقه الله جل وعلا من تراب ؛ هذا معنى قوله : ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾

﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي في الأرض ؛ حيث من مات يُدفن في الأرض ويوارى بالتراب .

قال: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أي يعيدكم وتبعثون من القبور وتقومون جميعاً لرب العالمين للجزاء والحساب والعقاب. ولهذا قال رحمه الله : ((**وبعدَ البَعْثِ محاسبُونَ**)) أي بعد بعث الناس وقيام الناس لرب العالمين الكل يحاسب ؛ محاسبون ومجزيون بأعمالهم. قوله : ((محاسبُونَ)) أي على الأعمال حسنها وسيئها ، صالحها وفاسدها ، يحاسبون على الأعمال

((**ومَجزيُّونَ بأعْمالِهِمْ**)) أي كلٌ يجازى بعمله إن خيراً أو شراً ، سواء قلَّ العمل أو كثر .

قال : ((**والدليلُ قولُهُ تعالى:** ﴿ **لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى**﴾)) فالكل مجزي بعمله؛ المحسن يجازى بالإحسان ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:٦٠] ، والمسيء يجازى بالعقوبة ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى﴾ [الروم:١٠] ، ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ:٢٦] ، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧-٨] .

قال : ((**ومَنْ كَذَّبَ بالبعثِ كَفَرَ**)) أي من زعم وادَّعى أنه لا بعث وليس هناك جزاء وحساب وقيام بين يدي رب العالمين من كذَّب بذلك فهو كافر .

((والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ﴾)) أي أن الكفار أنكروا البعث وأنهم يبعثون ويقومون للحساب ويجازون على الأعمال

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي تُخبرون بأعمالكم كلها محصاة عليكم في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧] ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي هيّن وسهلٌ وليس بعسير بل هو يسير على الله تبارك وتعالى .

﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ «بلى وربي» هذا قسم وحلف بالله أمره الله سبحانه وتعالى به ، أمره أن يقسم بالله جل وعلا على البعث . وفي القرآن آيات ثلاثة فيها قسم النبي ﷺ وحلفه على البعث:

١. منها هذه الآية .

٢. والآية الثانية هي قول الله تعالى : ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس:٥٣] .

٣. والثالثة قول الله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ:٣]

فهذه ثلاث آيات في القرآن كلها يأمر فيها الله سبحانه وتعالى نبيه بأن يقسم بالله على هذه الحقيقة ؛ وهي أن الساعة آتية ، وأن الناس يبعثون ، وأنهم سيقومون بين يدي رب العالمين ، وأنه سبحانه وتعالى يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

وهذا الجزاء والحساب والقيام بين يدي رب العالمين المذكور في هذه الآيات وفي غيرها أمرٌ سندركه جميعاً وسنلقاه وسنقف جميعاً بين يدي الله تبارك وتعالى وسيحاسب العباد على أعمالهم ؛ ولهذا الكيِّس من عباد الله من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني . وعلى كل عاقل أن يدرك أن الآخرة مقبلة وأن الدنيا مدبرة ، وأن الآخرة لها أبناء وأن الدنيا أيضاً لها أبناء ، وأن الواجب على العاقل أن يحرص أن يكون من أبناء الآخرة الباقية ولا يكون من أبناء الدنيا الفانية ، وأن يعلم أن هذه الحياة ميدان للعمل ، فيها عمل ولا حساب ، ويوم القيامة فيه حساب ولا عمل ؛ فينبغي أن يعِد للحساب عدَّته ، وأن تكون العدة هي الإخلاص لله جل وعلا والإتباع للرسول ﷺ ، يجاهد ويرابط ويسأل الله جل وعلا أن يثبته على الحق والهدى إلى أن يلقى الله جل وعلا وهو راض عنه .

وآيات الحج – كما أشرت – ختمها الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[البقرة:٢٠٣] ؛ فإذا علمت واستيقنت واستحضرت أنك ستُحشر ، وأنك ستلقى الله سبحانه وتعالى ، وأنك ستفارق هذه الحياة الدنيا ، تفارق الأولاد ، تفارق التجارة ، تفارق الأموال تفارق كل شيء ، وأنه لن يدخل معك في قبرك من دنياك إلا عملك ؛ أما الأولاد لا يدخلون ، الجيد من أولادك التي يأتي معك إلى القبر ، والآن يوجد من بعض الأولاد من لا يأتي مع والده عند قبره من العاقين ، منهم من لا يأتي معه حتى عند قبره ، فالجيد من الأولاد من يأتي مع والده إلى قبره ويشارك في دفنه وتشييعه ويدعو له ((أو ولد صالح يدعو له)) ، وأما تجارتك وأموالك وبيوتك إلى آخر ذلك كل هذا بمجرد ما تخرج روح الإنسان من جسده تنتهي هذه الأمور في حقه ولا يكون مالكاً منها شيء، ولا يأتي معه في الآخرة منها شيء كلها يفارقها ، لو كانت ريالاً واحداً أو كانت ملايين الريالات ؛ يستوي الغني والفقير ، والملك والمملوك ، والرئيس والمرؤوس ، والتاجر وغير التاجر ، كلهم إذا خرجت أرواحهم من أجساهم لم يصبح معهم مما يمتلكون شيء من أمور الدنيا ، بل لا يدخل معه من أملاكه من أمور الدنيا إلا الكفن ، والكفن بعد أيام يبلى تأكله الأرض ما يبقى معه ، يبلى وتأكله الأرض ويبقى بدونه ، ولا يدخل مع الإنسان في قبره إلا العمل ، وهو قبره يأتيه عمله الصالح؛ إن كان عملاً صالحاً يأتيه كما جاء في الحديث بصورة رجل صالح فيقول : من أنت ؟ وجهك لا يأتي إلا بالخير ، يقول : أنا عملك الصالح . والعمل السيئ يأتي بصورة رجل سيء ويتأذى الإنسان منه في قبره ، لكن فات الفوات ولا ينفع الندم ، والعاقل يستعد .

من جميل ما يذكر ويؤثر ويستفاد به جداً وينتفع : أن احد السلف أراد أن يعظ رجلاً مقصراً ؛ فأخذه إلى المقابر وأشار له إلى أحد القبور وقال له : لو كنت مكان هذا الرجل في القبر ماذا تتمنى ؟ قال : والله لو كنت مكانه لتمنيت أن يرجعني الله سبحانه وتعالى للدنيا حتى أغيِّر حالي وأعمل صالحاً غير الذي أعمله الآن،، قال : يا هذا أنت الآن فيما تتمناه ، أنت الآن عندك الفرصة؛ أعمل وأصلح نفسك وغيِّر حالك واستعد للقاء ربك جل وعلا قبل أن تُدخل في القبر ثم تكون هذه أمنية لكن لا يمكن أن تتحقق لك . إذا دخل الإنسان القبر ودُفن ما يمكن أن يُرجع إلى الدنيا ليصلح حاله ، قال : أنت الآن فيما تتمناه ؛ ولهذا يغتنم الإنسان فرصة وجوده في هذه الحياة ، روحه في جسده يستطيع يذكر الله ، يوحد الله ، يعبد الله ، يصلي ، يصوم ، يجتنب المحرمات والمنهيات ، يجاهد نفسه على الصلاح والتقى والعبادة لله تبارك وتعالى وربه جل وعلا راض عنه .

والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا مُحَمَّد وآله وصحبه أجمعين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الدرس السابع عشر

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله – صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ، أما بعد :

قال شيخ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

وأرسل الله جميع الرسل مبشرين ومنذرين ، والدليل قوله تعالى : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ ، **وأولهم نوح عليه السلام وآخرهم مُحَمَّد صلى الله عليه وسلَّم ، وهو خاتم النبيين ، والدليل على أن أولهم نوح قوله تعالى:** ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ **وكل أمة بعث الله إليها رسولا من نوح إلى مُحَمَّد يأمرهم بعبادة الله وحده وينهاهم عن عبادة الطاغوت . والدليل قوله تعالى :** ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ ، **وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله . قال ابن القيم رحمه الله: معنى الطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاع . والطواغيت كثيرة ، ورؤوسهم خمسة : إبليس . لعنه الله . ، ومن عُبد وهو راض، ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه، ومن ادعى شيئا من علم الغيب ، ومن حكم بغير ما أنزل الله، والدليل قوله تعالى:** ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ **وهذا هو معنى لا إله إلا الله ، وفي الحديث: ((رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله)) .**

والله أعلم ، وصلى الله على مُحَمَّد وآله وصحبه وسلم .

****

قال المصنف رحمه الله تعالى وغفر له : **((وأرسل الله جميع الرسلِ مبشرينَ ومنذرين))** بيّن هنا رحمه الله اتفاقَ جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم على البشارةِ والنذارة ؛ البشارةِ بالتوحيد والنذارةِ من الشرك ، البشارةِ بالجنة وثواب الله لمن عمل بالتوحيد وكان من أهله ، والنذارة من النار لمن كان من أهلِ الشرك الناقضين للتوحيدِ الناكثينَ للإيمان . قال : ((وأرسل اللهُ جميع الرسل مبشرين ومنذرين)) ثم ذكر الدليلَ على ذلك قال :

((**والدليلُ قوله تعالى** : ﴿**رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ**﴾)) أي بعث الله سبحانه وتعالى الرسل للبشارةِ والنذارة ، مبشرين الناس ومنذرينهم ، يبشرون الناسَ بالجنة لمن عملَ بعمل أهل الجنة ، ورأسُ عملِ أهل الجنةِ توحيد الله ، ومنذرين من النار ومن العمل بعمل أهل النار ، ورأس أعمال أهل النار الشرك بالله جل وعلا .

قال : ﴿ **رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾ أي لئلا يقولَ الناس يوم القيامة ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾[المائدة:١٩] ، فالله سبحانه وتعالى أقام الحجة وأبان المحجة وأضح السبيل ببعثة رسله وأنبياءه عليهم صلوات الله وسلامه ، ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[فاطر:٢٤] .

قال : ((**وأولهم نوحٌ عليه السلام ، وآخرهم محمدٌ صلى الله عليه وسلَّم**)) أولُ الرسل أي إلى أهل الأرض هو نوحٌ عليه السلام ، وذكر المصنف رحمه الله تعالى الدليل على ذلك ، ذكر الدليل على أن أولَ رسولٍ إلى أهل الأرض هو نوحٌ عليه السلام وهو قولُ الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ كما أوحينا إلى أولهم ثم توالوا بعده وبُعثت الرسل تترا بعده ، فكان هو أولهم ، ولهذا قال: ﴿وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾، وجاء في الصحيحين في ذكر حديث الشفاعة الطويل أن الناسَ يوم القيامة يأتون نوحاً عليه السلام ويقولونَ له : ((أنت أولَ رسولٍ بعثه الله إلى أهل الأرض)) والحديث في الصحيحين . فهذا مع الآية الكريمة التي ساق المصنف رحمه الله تعالى فيهما الدليل على أن نوحاً عليه السلام هو أولَ رسولٍ .

ثم ختموا بمحمد عليه الصلاة السلام كما قال المصنف هنا ((**وآخرهم مُحَمَّد صلى الله عليه وسلَّم**)) ؛ والدليل على ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾[الأحزاب:٤٠] ، وجاء في الصحيحين وغيرهما عنه ﷺ أنه قال : ((لا نبي بعدي)) ؛ فبه عليه الصلاة والسلام خُتمت النبوات فلا نبي بعده صلوا ت الله وسلامه عليه .

أولهم نوحٌ وآخرهم مُحَمَّد ﷺ، وبين هذين الرسولين بُعث عددٌ كبيرٌ من المرسلين ، جاء في بعض الأحاديث إشارة إلى هذا العدد وحسَّنه بعض أهل العلم ، وهو ما رواه ابن أبي حاتم وغيره من حديث أبي ذر ﷺ قال : «قلت يا رسول الله كم الأنبياء ؟» أي كم عدد الأنبياء الذين بعثهم الله سبحانه وتعالى؟ قال: ((مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً)) ، قلت : «يا رسول الله كم الرسل منهم؟» لأن القاعدة عند أهل العلم: أن كل رسولٍ نبي ، وليس كل نبيٍ رسولا ، ولهذا قال أبو ذر ﷺ «كم الرسل منهم؟» يعني كم عدد هؤلاء الرسل

من الأنبياء ؛ لأن كل رسول نبي وليس كل نبيٍ رسول ، قال : كم عدد الرسل منهم ؟ قال : ((ثلاث مائة وثلاثة عشر جمٌ غفير)) . فإذاً بعث الله عز وجل النبيين والمرسلين رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وهم كما جاء في الحديث جمٌ غفير ، وعدد كثير ، إقامةً للحجة وإزالةً للمعذرةِ وإبانةً للسبيل .

قال : ((**وكل أمة بعث الله إليهم رسولاً من نوحٍ إلى محُمَّد يأمرهم بعبادةِ الله وحده وينهاهم عن عبادة الطاغوت، والدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾**)) ؛

وهنا يقرر رحمه الله تعالى اتفاق دعوة النبيين على الدعوة إلى التوحيد والتحذيرِ من الشرك ، فكلمةُ النبيين في هذا واحدة ولا خلافَ بينهم ، فهم دعاةٌ إلى توحيد الله وإخلاص الدين له ، وإلى التحذير من الشرك والبراءة منه ومن أهله ، فهذا أمرٌ متفقٌ عليه بين النبيين وكلمتهم فيه واحدة ، والدليل كما قال المصنف قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ أي أن الرسل كُلَهم دعاةٌ إلى عبادة الله سبحانه تعالى وهي توحيده ، وإلى نبذ الطاغوت وهو الشركُ والكفرُ به سبحانه وتعالى كما سيأتي إيضاحٌ لذلك وبيان عند المصنف رحمه الله تعالى.

وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن تقرر هذه الحقيقة وتجلي هذا الأمر ، كقول ربنا سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء:٢٥] ،وقوله سبحانه ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾[الزخرف:٤٥] ، كذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾[الأحقاف:٢١] ﴿خَلَتِ النُّذُرُ ﴾ أي الرسل ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾أي من أمامه ، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي قبله ، اتفقوا كلهم على هذا الأمر ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾الذي هو إخلاص العبادة لله تبارك وتعالى والتحذير من الإشراك به سبحانه وتعالى .

ولهذا جاء في القرآن الكريم عند ذكر قصص الأنبياء أن أول شيءٍ يبدأ به الأنبياء أقوامهم في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى هو ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فهذه الكلمة هي أولُ كلمةٍ يسمعها الأقوام من الأنبياء ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾؛ فكلمةُ الأنبياء واحدة ، فكلهم دعاةٌ إلى توحيد الله جل وعلا وإخلاص الدين له ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن نبينا عليه الصلاة والسلام قال : ((نحن الأنبياء أبناء علات ، ديننا واحد وأمهاتنا شتى))؛ «ديننا واحد»: أي عقيدتنا واحدة وهي الدعوة إلى عبادة الله

سبحانه وتعالى وإخلاص الدين له ، «وأمهاتنا شتى»: أي شرائعنا مختلفة ، لأن الشريعة والأحكام قد تختلف من نبي إلى آخر ، كما قال الله سبحانه ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة:٤٨] ، أما التوحيد فالأنبياء كلمتهم فيه واحدة ، العقيدة الكلمة فيها عند الأنبياء واحدة ليس بينهم خلافٌ في شيءٍ من هذا .

قال : ((**وكل أمة بعث الله إليهم رسولاً من نوحٍ إلى محمدٍ؛ يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة الطاغوت**)) ؛ لاحظ أن دعوة الأنبياء كلهم قائمة على أمرٍ ونهي ، يأمرهم وينهاهم ، كل نبي يأمر وينهى ، يأمرهم بالتوحيد ، وينهاهم عن الشرك أو ينهاهم عن الطاغوت . وهذا يُعلم به أن أمر الإنسان ودينه وأعماله وجميع طاعاته لا تستقيم إلا إذا بُنيت وأسست على هذا الأمر والنهي؛ الأمر بعبادة الله، والنهي عن عبادة الطاغوت ، أي أن يكون موحداً لله في عبادته ، بريئاً من الشرك وعبادة الطاغوت ، فإن لم يكن فيه هذان الأمران لم يُقبل له عمل ولم ينتفع بطاعة، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾[البقرة:٢٥٦] . وهذا يبين لنا المكانة العظمى والمنزلة العليّة للتوحيد والإخلاص والبراءة من الشرك ، وأنهما لهذا الدين بمثابة الأساس والأصل الذي يقام عليه دين الله سبحانه وتعالى .

وهنا أنقلُ كلاماً عظيماً نافعاً للشيخ عبد الرحمن بن قاسم في حاشيته على الأصول الثلاثة؛ قال رحمه الله: «وبه تعرف عظمة شأن التوحيد ، ومعرفتك عظمته بأن تَصْرف همتك إليه وإلى معرفته والعمل به غاية جهدك ، وإلى معرفة ما يضاده وما سواه من أنواع العلوم الفرعية بعد ذلك -أي يؤتى بها بعد أن يؤتى بالأصل والأساس الذي تبنى عليه الأعمال- فيهتم الإنسان غاية الاهتمام بمعرفة أصل الدين إجمالاً قبل الواجب من الفروع؛ الصلاة والزكاة وغير ذلك ، فلا تصلح الصلاة ولا الزكاة قبل الأصل ، فلابد من معرفة أصل الدين إجمالاً ثم معرفة فروعه تفصيلاً ، وفي حديث معاذ لما بعثه النبي ﷺ إلى اليمن قال له : ((إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادةَ أن لا إله إلا الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلِمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يومٍ وليلة))» تنبه قال : «إن هم أطاعوك لذلك» يعني إن هم أطاعوك للتوحيد فأعلمهم بأمر الصلاة- وهذا يفيد أنهم إذا لم يعلموا التوحيد ولم يعملوا به ، فلا يدعوهم للصلاة -لأنهم لو صلوا بدون التوحيد لا تفيد الصلاة ، نرجع للحديث مرة ثانية قال ((فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله)) ثم قال: ((فإن هم أطاعوك)) ، مفهوم الحديث: أنهم إن لم يطيعوك في التوحيد لا تعلمهم بالصلاة ؛ لأنك لو أعلمتهم بالصلاة وصَّلوا بدون التوحيد الصلاة لا تنفعهم ؛لأنها قائمة على غير أصل ، ومبنية على غير أساس.

قال : «وهذا يفيد أنهم إذا لم يعلموا التوحيد ولم يعملوا به فلا يدعوهم للصلاة إن لم يطيعوه في الدخول في الإسلام، فإن الصلاة لا تنفع ولا غيرها بدون التوحيد ، فإنه لا يستقيم بناءٌ على غير أساس ولا فرعٌ على غير أصل، والأصلُ والأساس هو التوحيد ، والصلاة وإن كانت هي عمود الإسلام ؛ فمع ذلك لم تفرض إلا بعد الأمر التوحيد بنحو عشر سنين -وهذا سبق أن مرّ معنا- ومما يبين أن التوحيد هو الأصل كونه يوجِد من يدخل الجنة ولم يصل ركعةً واحدة ، وذلك إذا اعتقد التوحيد وعمل به ومات متمسكاً به ، كأن يُقتل قبل أن يصلي أو يموت -ممكن شخص يدخل الجنة وليس عنده إلا التوحيد ، ليس عنده صلاة ولا صيام مثل أن يُدعى إلى الإسلام ويبيَّن له الإسلام فيعلن إسلامه أشهد أن لا إله إلا الله وان مُحَّمداً رسول الله ثم يُقتل أو يموت فهذا يدخل الجنة- والصلاة لا تنفع وحدها ولو صلى وزكى وصام إذا لم يعتقد التوحيد - وبذلك يُعرف عِظم شأن التوحيد- وما هلك من هلك إلا بترك العلم بالتوحيد والعمل به ، وما دخل الشيطان على من دخل ولا مزّق عقول من مزّق ولا وقع ما وقع إلا من آفة قولهم "يكفي النطق بالشهادتين ومجرد المعرفة" حتى إن من علمائهم من لا يعرف التوحيد أصلاً ، ولذلك لكونهم ابتلوا بالشرك وعبادة الأوثان وكثرة الشبهات الباطلة ، فبذلك خفي التوحيد على كثير ممن يدَّعي العلم لعدم المعرفة به ، وإلا فمعرفة التوحيد والشرك من أهون ما يكون وأسهله إجمالاً كما في زمن الصحابة فإنهم كانوا يعرفون التوحيد والشرك ، فمن قال لا إله إلا الله يترك الشرك ويعلم أنه باطلٌ منافٍ لكلمة الإخلاص، ولهذا لما دعاهم النبي ﷺ إلى التوحيد وقال: ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)) قالوا : ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[ص:٥] ، وأما حين كثرت الشبهات صعب معرفة التوحيد والتخلص من ضده وكثر النفاق وصار الكثير يقولها -أي يقول كلمة التوحيد لا إله إلا الله- ويعبد مع الله غيره فالله المستعان» أ.هـ

هذا كلام عظيم في بيان أهمية التوحيد ومكانته العظمى وأن أمر التوحيد واضح وشأنه بيّن ، لكن لما وُجدت في بعض المجتمعات ترويج الشبهات الضالة والأهواء الباطلة أُبعِدت العقول عن صفاء التوحيد ونقاء الإيمان إلى ضلالاتٍ وشركيات وأباطيل ما أنزل الله سبحانه وتعالى بها من سلطان، وأصبح يوجد من يقول «لا إله إلا الله» ولكنه لا يقوم بحقيقة هذه الكلمة من الإخلاص للمعبود سبحانه وتعالى والبراءةِ من الشرك ، بل في اللحظة الواحدة تسمعه يقول «لا إله إلا الله» ومباشرة بعد كلمة لا إله إلا الله يستغيث بغير الله ويطلب مدده أو شفائه أو صلاحه وهداية ولده من غير الله تبارك وتعالى!! فأين هؤلاء من نور هذه الكلمة وضياء التوحيد وسنا الإيمان الذي تدل عليه هذه الكلمة العظيمة المباركة؟ .

ثم قال رحمه الله تعالى : ((**وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله**)) ؛ ومرّت معنا الآية في أن هذا هو زبدة دعوة المرسلين وخلاصة رسالتهم ، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] .

قال : ((**وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله**)) افترض عليهم : أي أن هذا الأمر الذي هو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله فرضٌ لازم وواجبٌ متعين وأمرٌ متحتم على كل مسلم ومسلمة ، ولا سعادة ولا نجاة من النار ولا فوز برضا الله سبحانه وتعالى إلا بتحقيق هذا الأصل ، ولهذا قال الله تعالى بعد آية الكرسي ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة:٢٥٦]أي استمسك بالتوحيد وبالدين الحق. الكفر بالطاغوت والإيمان بالله هذان فرضان متحتمان ؛ افترض الله على العباد أن يكفروا بالطاغوت ويؤمنوا بالله .

ما هو الكفر بالطاغوت؟ وما هو الإيمان بالله ؟

قال شيخ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في بعض رسائله: «صفة الكفر بالطاغوت: أن تعتقد بطلان عبادةِ غير الله وتتركها وتبغضها وتكفِّر أهلها وتعاديهم» هذه صفة الكفر بالطاغوت . قال رحمه الله: «ومعنى الإيمان بالله: أن تعتقد أن الله هو الإله المعبودُ وحده دون من سواه وتخلص جميعَ أنواع العبادة كلها له وتنفيها عن كل معبودٍ سواه ، وتحبَ أهل الإخلاص وتواليهم ، وتبغضَ أهلَ الشركِ وتعاديهم» هذا معنى الكفر بالطاغوت والإيمان بالله سبحانه وتعالى .

ثم نقل المصنف رحمه الله نقلاً مفيداً في هذا الباب عن الإمام العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى ، والنقل من كتبه إعلام الموقعين ، نقل عنه أنه قال : ((**الطاغوت: ما تجاوز به العبد حده من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاع**)) هذا تعريف الطاغوت ، والكلمة في أصلها مشتقةٌ من الطغيان ، الطغيان: تجاوز الحد ، فالطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاع . «من معبودٍ» إذا تجاوز الإنسان حده في مخلوقٍ من مخلوقات الله فجعله معبوداً مع الله يصرف له العبادات من دعاء أو رجاء أو يذبح أو غير ذلك من أنواع العبادة ؛ كل ما تجاوز به العبد حده من معبودٍ أو «متبوعٍ» أي في معاصي الله سبحانه وتعالى أو في ما حرم ، أو «مطاعٍ» من دون الله في التحليل والتحريم في أن يحرم ما أحل الله أو يحل ما حرم الله . وابن القيم رحمه الله لما ذكر هذه الأمور الثلاثة في تعريف الطاغوت قال : «فإذا تأملت طواغيت العالم فإذا هي لا تخرج عن هذه الثلاثة» ، قوله «إذا تأملت طواغيت العالم» هذا إشارة إلى أن الطواغيت كثيرون لكن هذه الثلاثة تجمع ، ولا يخرج كل طاغوت في العالم عن هذه المعاني الثلاثة وهي الواردة في قوله : ((ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع)) .

قال رحمه الله : ((**والطواغيت كثيرة**)) أي عددهم كثير؛ لأنك إن تأملت كلام ابن القيم السابق يفيد هذا المعنى يفيد كثرة الطواغيت .

قال : ((**ورؤوسهم خمسة : إبليس لعنه الله**)) أول هؤلاء الطواغيت وأشرهم وأعتاهم وأكثرهم طغياناً إبليس لعنه الله ؛ فهو أشد الطواغيت، لأنه الداعية الأول للشرك ولعبادة غير الله سبحانه وتعالى ﴿يَاأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم:٤٤] ، فالشيطان الداعية الأول وأكبر الدعاة إلى الشرك بالله سبحانه وتعالى؛ يدعو إلى أمورٍ كثيرة ، لكن أهم شيءٍ يدعو إليه ويجِدُّ ويجتهد في نيله ويحرّص جنوده عليه الشرك بالله سبحانه وتعالى وعبادة الطواغيت .

قال : ((**ورؤوسهم خمسة : إبليس لعنه الله ، ومن عبد وهو راضٍ**)) من عُبد بالدعاء والذبح والنذر والرجاء وغير ذلك وهو راضٍ ، أما من يُعبد وهو ليس راضٍ لا يكون طاغوتاً ، وعبادته طغيان ممن عَبد غير الله سبحانه وتعالى لأنه تجاوزُ للحد ، كفرٌ بالله سبحانه وتعالى ، لكن من عبد من دون الله وهو غير راضٍ مثل عيسى عليه السلام عُبد من دون الله وهو غير راض ، وعزير عليه السلام عُبد وهو غير راض ، الملائكة عُبدت وهي ليست راضية ، فكل من عُبد من ملكٍ أو نبي أو ولي من الأولياء من دون الله سبحانه وتعالى فليس داخلاً في الباب ، فالطاغوت: من عُبد من دون الله وهو راضٍ بأن يُعبد ، مقرٌ لهذا الأمر غير منكرٍ له ، والملائكة والأنبياء وأولياء الله عز وجل الصادقين كلهم يبرؤون ممن عبدهم ، ويعلنون البراءة بين يدي الله سبحانه وتعالى يوم القيامة من هؤلاء ؛ لأنهم ليسو راضين عن ذلك ، حتى نبينا عليه الصلاة والسلام يبرأ إلى الله سبحانه وتعالى من ذلك ؛ لأن العبادة حقٌ لله ، لا يُدعى إلا الله ، ولا يستغاث إلا بالله ، ولا يذبح إلا لله ، ولا يُصرف شيء من العبادة إلا لله سبحانه وتعالى ؛ فكما أن ربنا عز وجل تفرد بخلق الخلق فالواجب أن يُفرد وحده سبحانه وتعالى بالعبادة فلا يُجعل معه شرك لا ملَك مقرب ولا نبي مرسل فضلًا عن غيرهما ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨].

قال : ((**ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه**)) أيضاً طاغوت؛ من دعا الناس إلى عبادة نفسه فهو طاغوت ، حتى وإن لم يعبده ، حتى وإن لم يعبده ولا واحد من الناس فهو طاغوت ؛ طالما يدعو الناس إلى عبادة نفسه ويريد منهم أن يعبدوه أو يصرفوا له شيئاً من العبادة أو يعطوه شيئاً من حقوق الله أو خصائصه فهو طاغوت ، حتى وإن لم يقبلوا منه ، حتى وإن لم يجد من لم يقبل منه ذلك فهو من الطواغيت . مثل أن يدَّعي للناس أنه يعلم الغيب هذا طاغوت حتى وإن لم يصدقه أحد ، وكذلك من يريد من الناس أن يعبدوه

أو يعلِّقوا حاجاتهم به أو يريد أن تصرف له أشياء من حقوق الله وخصائصه هذا من الطواغيت حتى وإن لم يقبل منه أحد .

قال : ((**ومن ادعى شيئاً من علم الغيب**)) أيضاً فهو من الطواغيت ؛ مثل السحرة والكهنة والمشعوذين والمنجِّمين والرمَّالين ومن يزعمون القراءة في الكف إلى آخره ، كل من ادَّعى علم الغيب فهو من الطواغيت ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥] . فعلم الغيب أمرٌ اختص الله سبحانه وتعالى به ، فمن ادَّعى ذلك لنفسه فهو من الطواغيت ؛ لأن هذا من تجاوز العبد للحد ، فعلم الغيب لله ، فإذا ادَّعاه أحد الناس أو أحد المخلوقين لنفسه يكون بذلك طاغوتاً لأنه تجاوز بذلك الحد .

قال : ((**ومن حكم بغير ما أنزل الله**)) أي ترك أحكام الله وشرعه وتنزيله وسنَّ في الناس أحكاماً وقوانين وضعية من وضع البشر فنبذ حكم الله جل وعلا واستبدل به أحكام البشر وقوانين البشر والأمور التي وضعها البشر ، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠] ، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى:٢١] ، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤] ، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف:٤٠] .قال : ((ومن حكم بغير ما أنزل الله)) .

لما ذكر هذه الرؤوس الخمسة للطواغيت ذكر رحمه الله الدليل على أن الإيمان والتمسك بالدين حقاً وصدقاً لا يكون إلا بالكفر بالطاغوت مع الإيمان بالله سبحانه وتعالى، قال : ((**والدليل قوله تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾** [البقرة:٢٥٦]))

قوله ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أي لا تكرهوا أحداً عليه ؛ لأنه استبان أمره واتضح وظهر وبان ، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يُكره أحدٌ عليه . وقيل إن هذه الآية كانت في ابتداء الأمر ثم نُسخت بالآيات التي فيها الأمر بالقتال.

قال : ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ ؛ تبين الرشد من الغي: أي تميز الحق من الباطل ، والإيمان من الكفر ، والهدى من الضلال ؛ أي بالآيات البينات والحجج الواضحات والدلائل الساطعات التي جاء بها الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أي أخذ وتعلق بالمعتصَم الذي لا ينفصم ﴿لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ أي اعتصم بالمعتصَم الذي من تمسك به نجا ومن لم يتمسك به هلك . وهذا فيه أنه لا نجاة ولا عصمة لأحد ولا سلامة إلا بهذين الأمرين: الكفر بالطاغوت ، والإيمان بالله .

قال : ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ ومعنى استمسك بالعروة الوثقى: أي استمسك بـ«لا إله إلا الله» ، فلا إله إلا الله هي العروة الوثقى ، ولا يكون العبد من أهل «لا إله إلا الله» إلا بتحقيق ما دلت عليه هذه الكلمة العظيمة من النفي والإثبات ، والنفي هو الكفر بالطاغوت ، والإثبات هو الإيمان بالله ؛ وبهما يكون العبد من أهل «لا إله إلا الله» حقاً وصدقاً ، أما بمجرد النطق لهذه الكلمة دون تحقيق ما دلت عليه من الكفر بالطاغوت والإيمان بالله فإن الإنسان لا يكون بمجرد ذلك من أهل هذه الكلمة العظيمة.

يقول شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله تعالى –وهذا تقعيدٌ نافع وتأصيلٌ مفيد– يقول رحمه الله : «كل اسمٍ عُلق بأسماء الدين من إسلام أو إيمان أو غيرهما إنما يثبت لمن اتصف بتلك الصفة الموجبة لذلك»؛ أي أن مجرد الادِّعاء أو مجرد الانتماء بدون تحقيق الاتصاف بما يقتضيه ويوجبه لا يكون من أهل ذلك الوصف ، فلو قال : إني مسلم ولا يستسلم! أو قال إني مؤمن ولا يقر ولا يصدق! أو غير ذلك لا يكون من أهل هذه الألفاظ وان ادَّعاها لنفسه ، فإذًا ليست العبرة بالدعاوى وإنما العبرة بالحقائق .

ثم قال رحمه الله : ((**وفي الحديث: رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله**)) «رأس الأمر الإسلام» أي توحيد الله سبحانه وتعالى وتحقيق الشهادتين ؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فهذا هو رأس الأمر . والأمر كله يُبنى على هذا الرأس وعلى هذا الأساس ، فإذا لم يكن هذا الأساس قائماً لا يُستفاد كما تقدم من صلاة ولا من غيرها من الأعمال ، فلابد من إقامة الدين على هذا الأصل العظيم والأساس المتين .

قال ((**وعموده الصلاة**)) وهذا فيه بيان مكانة الصلاة من الدين وأنها أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين ، وجعلها بمكانة عليّة من الدين بحيث إنها للدين بمثابة العمود للخيمة ، ومن المعلوم أن العمود الذي تقوم عليه الخيمة إذا نُزع سقطت ولم تقم لها قائمة ، لا تقوم الخيمة إلا بعمودها ، وهذا فيه دلالة على كفر تارك الصلاة ، قال عليه الصلاة والسلام : ((العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة؛ فمن تركها فقد كفر)) ففيه دلالة على كفر تارك الصلاة ، لأن الصلاة للدين بمثابة العمود للبنيان أو العمود للخيام ، فكما أن البناء أو الخيمة لا تقوم إلا على عمود فكذلك الإسلام لا يقوم إلا على هذا العماد . قال : ((وعموده الصلاة)) ومن لم يصلِّ لا حظ له في الإسلام ، وأخذاً من هذا الحديث وغيره قال أهل العلم : «من أراد أن يعرف

حظه من الإسلام فلينظر إلى حظه من الصلاة» . الصلاة ميزان يستطيع الإنسان أن يعرف من خلالها حظه من الإسلام ، والإسلام يزيد وينقص ويقوى ويضعف ، وإذا أردت أن تعرف الميزان في ذلك فعندك ميزانٌ ومحكٌ دقيق وهو الصلاة ، يستطيع الإنسان يزن نفسه من خلال الصلاة واهتمامه بها ، ومن المعلوم أن الناس يتفاوتون في أمر الصلاة تفاوتاً عظيماً .

قال: ((**وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله**)) ذروة الشيء: أعلاه وأرفع شيء فيه ، وسمي سنام البعير سناماً لارتفاعه وعلوه ولأنه أعلى شيء في البعير وأرفعه . وعدّ النبي ﷺ الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام لأن الجهاد له في الدين المكانة العليّة والمنزلة الرفيعة .

والنصوص في فضل الجهاد ومكانته وعظيم ثواب أهله عند الله سبحانه وتعالى كثيرة في كتاب الله سبحانه وتعالى، والمراد بالجهاد: أي الجهاد الشرعي المبني على أسسٍ قويمة وقواعد مستقيمة مستمدة من كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة نبيه ﷺ . أما الاعتداء والظلم والبغي والخروج على ولاة الأمر ونحو ذلك مما يسميه بعض الناس جهاداً هذا ليس من الجهاد في شيء ، وفاعله لا يؤجر بل يؤزر، ولا يكون من المجاهدين ؛ لأن الجهاد أمرٌ شرعي جاء بيانه في الكتاب والسنة، فلا يُفعل إلا في ضوء ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، أما أن يركب الإنسان رأسه ويحمل سيفه أو سلاحه ويمضي قتلاً وظلماً وعدواناً بغير بينةٍ ولا معتمدٍ ولا مستمدٍ من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه فليس فعله جهاداً ولا هو أيضاً من المجاهدين في سبيل الله .

وبهذا يكون المصنف رحمه الله تعالى أنهى هذه الرسالة العظيمة المباركة وختم هذه النبذة الطيبة بقوله ((والله أعلم)) بردِّ العلم إلى الله سبحانه وتعالى الذي أحاط بكل شيءٍ علماً ، وأحصى كل شيءٍ عدداً ، ووسع كل شيءٍ علماً؛ فردَّ العلم إلى عالمه ، ثم ختم بالصلاة والسلام على نبينا مُحَّد وآله وصحبه أجمعين .

ونسأل الله عز وجل العظيم رب العرش العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجزي هذا الإمام وغيره من علماء المسلمين وأئمة الدين عنَّا وعن المسلمين خير الجزاء ، وأن يرفع درجاتهم في عليين ، وأن يغفر لنا ولهم أجمعين . وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبينا مُحَّد وعلى آله وصحبه أجمعين .